تمهيد

القرآن الكريم معجزة خالدة ، والبلاغة هي الوجه الأعظم من وجوه الإعجاز :

القرآن الكريم معجزة خالدة ، باقية إلى يوم القيامة ، والمعجزة " أمر خارق للعادة ومقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة "[1] ، والقرآن كذلك ، هو خاتم الكتب السّماوية ليس له عصر معين في إعجازه ، ولا زمن محدد في تحّديه للبشرية كلها ، وتحديه هو لمن يقيمون على هذه الأرض "لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(يس،الآية٧٠) فهو موجّه إلى الأحياء ، وليس لمن انتقل إلى العالم الآخر ، ونزل القرآن أول ما نزل في بيئة الحجاز ، بيئة أرباب القول من قريش ، ثم انطلق ليّعم أرجاء المعمورة .

بدأ سيدنا محَّمدُ صلّى الله عليه وسلم بتقرير أّنه رسول ، إذ أرسله الله لحكمة سامية (ردّدها القرآن الكريم في غير ما موضع ، هى تزكية النفوس وتطهيرها ﴿لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. (آل عمران الآية :١٦٤.)

من أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين "وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين"(. الأنبياء ، الآية : ١٠٧) ، ولكنّ العرب سخروا من دعوته ، ودارت ملحمة الصّراع بين سيدنا مُحمّد (صلّى الله عليه وسلم) وبين أرباب القول الذين ادّعوا أنهم صنّاع الفكر .

---

[1] الشيخ محمد متولي الشعراوي معجزة القرآن ، دار ابو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ، د،ت ،ص١٢.

هنا تشريفان ،الأول للنَّبي (صلى الله عليه وسلم) بأن جعل الله الرّحمة تكمن في شخصيته –صلى الله عليه وسلم،والتشريف الثاني هو للأُمّة المحمدّية بأن بعث الله من بينهم رسول الرّحمة.

إن المعجزة الخالدة على مرِّ الأزمان هي القرآن الكريم الّتي جاء معجزاً لأهل الفصاحة والبلاغة وفسَّره النَّبّي الأمِّي الذّي لم تعهده العرب بالكتابة ولا القراءة فهذا عين الإعجاز الخالد.

لقد وصلوا في صراعهم مع نبّينا محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى حّد السُخف والفجور ، لكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، لقد قالوا ☎(الفرقان ، الآية : ٧) فردّ القرآن عليهم بما أفحمهم وقطع حجّتهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان ، الآية : ٢٠ .)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان ، الآية : ٣٢ .) ، فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلاً في غاية القوة والوضوح "كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً " (الفرقان الآية ، ٣٢ .)

١. (☎وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)☎" . (الزخرف الآية ، ٣٠ .) ، فردّ عليهم القرآن في أسلوب لاذع:" أهم يقسمون رحمة ربك "

(. الزخرف الآية:٣١). ولّما استيأسوا من الجدل المنطقي تقمصّوا عقلية الصّبيان ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ

بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ الآية :(٩٠ – ٩٣) ، فيجيبهم القرآن في سهولة لاذعة جادة : "قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً . (الإسراء الآية : ٩٣)

إنّ ما ذكرتُ ليثبت أنّ القرآن الكريم معجزة سيدنا محمد (صلّى الله عليه وسلم) ، ولو تتّبع كل قارئ للقرآن خصومة العرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لوجدها عنيفة قوية ، ولقد صور القرآن ، عنفها وقوتها ، فذكر وصفهم له بالجنون وبالسّحر وبأنه ليس من عظماء القريتين وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ..... فحسبي ما ذكرت ، ومن المتوقع بعد هذا الحوار الذي اتَّسم بالمنطق الإلهي الأخّاذ أن ينتصر القرآن على أرباب الفكر من سادة قريش وعظمائها .

ويُلاحظ أنّ معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السّابقين ، فمعجزات الرسل الذين سبقوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معجزات حسّية " مَنْ رآها فقد آمن بها ، وَمَنْ لم يرها صارت عنده خبراً ، إن شاء صدّقه وإن شاء لم يصّدقه "[1]

أمّا معجزة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فهي معجزة عقلية وليست حسّية ويضع لنا الحافظ جلال الدين السيوطي مقارنة فيها القول الفصل بين المعجزتين الحسية والعقلية حيث إنّ"أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية لبلادتهم ، وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمّة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لّما كانت باقية

[1] الشيخ محمد متولي الشعراوي معجزة القرآن ،ص٩.

على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر "[٢].

أقول : أليس ذلك من أعظم الدلائل على عظمة القرآن ، فكونه معجزة عقلية ، فهذا يؤكد أنّ له سلطاناً روحانياً على القلوب ، وولاية مطلقة على مدارك الإنس ، بل ومدارك الجن الذين قالوا حينما سمعوه: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن الآية١)

هذا هو القرآن معجزة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وحتى تكون معجزة خالدة باقية بقاء الدهر ، يقرر الله سبحانه وتعالى أن يحافظ على هذه المعجزة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.(الحجر ،الآية : ٩) وكون القرآن معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلاّ ضاع الإعجاز : لقد كان إعجاز القرآن اللغوي هو تحد للعرب فيما نبغوا فيه ، لكن القرآن لم يأتِ للعرب وحدهم ، فلابد أن يحمل معجزة للعالم في كل زمان ومكان ، فهناك معجزات القرآن وقت نزوله ، وفي خلال فترة نزوله ، وبعد نزوله ، وهي مستمرة إلى قيام الساعة[١] .

وعندما نزل القرآن كان له أكثر من معجزة ، منها : أنه تحّدى العرب في بلاغتهم – وهذا بيت القصيد في هذه الدراسة – البلاغة القرآنية فريدة في تناسق ألفاظها ، وفي تأليف عباراتها ، وفي نظم هذه الألفاظ والعبارات في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها ، كما أنّ من ألوان البلاغة القرآنية الموسيقى الناشئة من تخيّر الألفاظ في سياق آيات القرآن والتناسق في الانتقال من غرض إلى غرض .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ . (محمد ، الآية٢٤)

---

[٢]السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق حامد أحمد الطاهر البسيوني ، دار الفجر للتراث ، ٢٠٠٦ ٣٠٣/١.

[١]الشيخ محمد متولى الشعراوي، معجزة القرآن ، صـ ١٣ .

إنّ القرآن " وجود لغوي رُكب كل ما فيه على أن يبقى خالداً مع الإنسانية ، فهو يدفع عن هذه اللغة العربية النيلن الذي لا يُدفع عن شيء وهذا هو وحده الإعجاز " [١]

فقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية للنفوس لكنها لم ولن تصل إلى أعماق الروح وإلى مستقر اليقين والإيمان كما تصل آيات القرآن وتعالى الله علواً كبيراً ، فالقرآن " آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها الكواكب ، بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم وانضوت إليه

من الأرواح مواكب أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ،وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتزّ أنفالها"[٢].

وعلى مدى الزمان يحظى القرآن كل يوم بعناية الباحثين فيه ، والتعرف على أسرار وجوه الحسن في أساليبه التي تختلف في تناولها لمختلف القضايا وتقديمها لعقل الإنسان ووجدانه ، فهي تارة تساق إليه في تقريرية ومباشرة ، وهى تارة أخرى في ثوب من التصوير البياني بألوانه المختلفة[٣]

ومن السور القرآنية الكريمة الحافلة بالأسرار البلاغية للقرآن – كغيرها من السور – ، سورة الأنفال ، وهذه محاولة مني للكشف عن بعض أسرار التعبير القرآني فيها .

فالقرآن معجزٌ في جميع نواحيه اللغوّية والمعنوية التّي تنبئ عن الغيب ويأتي كما أنبئ عنه مثل فلق الصبح ، ويدرك كل واحد من النّاس القرآن بقدر فهمه هو ، وليس هناك من يُدرك القرآن إدراكاً كما أراد الله ، فالبارعون والذّين فتح عليهم المولى عزّ وجلّ

---

[١]) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت –لبنان ط٨، ص ١٣

[٢] المرجع السابق ،ص ١٣ .

[٣] المرجع السابق صـ ٢٤ .

وجعلهم من أهل خاصّته إنّما يُدركون الكلّيات وبعض من الجزئّيات ، فلا يدرك كلامه إلا هو وهذا عين الإعجاز .

مدخل لدراسة سورة الأنفال

لا شك أن القرآن الكريم مصدر كل خير وينبوع كل حكمة ، لذلك فإن النظر فيه وتأمله وتدبر معانيه ودلالاته وبيان المراد من ألفاظه وتراكيبه أمر بالغ الأهمية وعظيم القيمة ويهدف هذا المدخل إلى التعريف بسورة الأنفال من حيث، وقت نزولها ، التناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها ، التناسب بين بدايتها وخاتمتها ، الأغراض العامة لسورة الأنفال ومقاصدها .

اسمها ، ووقت نزولها :

سميت سورة الأنفال لأنه ورد لفظ "الأنفال" في أول السورة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ} (الأنفال الآية١).وسماها ابن عباس –رضي الله عنهما – بسورة بدر(٢)[١] لأنها تناولت أحداث هذه الغزوة بالتفصيل ، كما سميت بسورة الجهاد(٣)[٢] لتضمنها كثيراً من أحكام الجهاد والغزو والقتال ، ويعد الجهاد الموضوع الأساس الذي تدور عليه أكثر آيات السورة الكريمة وكانت قراءتها سُنّة، يقرأها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عند الزحوف ، فعمل الناس بذلك(٤).

وسورة الأنفال مدنية بدرية[٣] فهي من المدني ، قال ابن عباس " هي مدنية إلا سبع آيات من قوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا }إلى آخر السبع آيات[٤] وهي بدرية

---

[١] جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/٧، تحقيق د. عبد الله التركي ، مركز هجر للبحوث والدراسات ، القاهرة٢٠٠٣ ٥/٧

[٢] البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢١٤/٨، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ت ٢١٤/٨.

[٣] القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، حققه وخرج أحاديثه : عماد زكي البارودي ، خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة د.ت ،ص٢٩٠.

[٤] السابق ، ص٢٩٠

أي أنها نزلت في بدر ، وقد أجمع الكثير من المفسرين أنّ وقت نزولها كان في بدر " قال عبادة بن الصّامت رضي الله عنه نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السّواء" [1]

الأغراض العامة للسورة :

تضمنت سورة (الأنفال) الحديث عن أعمال من أجل ما قام في الإسلام كيوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، يوم بدر ، اليوم الذي عز فيه الإسلام وذل فيه الشرك والطغيان ، إنه يوم انتصار الحق على الباطل ،كما تضمنت كثيراً من التشريعات في السلم والحرب ، كأحكام الغنائم والأسر والجهاد والعهود ، وكيفية التعامل مع أعداء الدّين من مشركين ومنافقين ، كما اشتملت السورة على توجيهات وإرشادات إلهية عظيمة للمسلمين ، تجمع ما بين الأوامر والنواهي ترتبط بمقاصد الإسلام والإيمان والإحسان ، وللتشريعات الحربية مكانة واضحة في سورة (الأنفال) لأنها تتناول أحداثاً جليلة في تاريخ الأمة ، وبخاصة القتال مع أعداء الدين الذي لم يتوقف بعد غزوة بدر.

هذا وقد وضعت السورة للمسلمين دستور السلم والحرب ، ومعاملة المسلمين لأسرى الحرب ، والتعامل مع الغنائم بعد أن تضع الحرب أوزارها ، كل ذلك بأرقى أساليب التوجيه والتربية التي ترتكز على العقيدة الإسلامية السمحة والتي عجزت الدساتير الوضعية عن الوصول إليها كما تناولت السورة موضوعات أكثر تفصيلاً على الوجه التالي :

[1] – الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق محمود شاكر ، مكتبة ابن تيمية ٣٧٠/١٣ وانظر الكشاف للزمخشري ٥٥٠/٢ ،فتح القدير للشوكاني ٤٠٧/٢.

١- بدأت السورة بجملة خبرية هي قوله تعالى : " يسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ" ، وهذا الإخبار يدل على أن المسلمين أرادوا أن يستفهموا عن أمر الأنفال في بدر ، وأنهم اختلفوا في أمره، دل على ذلك قول عبادة السابق : (حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا) .

فنزل التوجيه القرآني آمراً المسلمين ومؤدباً لهم : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. (الأنفال ، الآية :(١)

٢- السورة نزلت في بدر وفي أصحاب بدر يعني أنّ هناك معركة وقعت بين جند الله وجنود الكفر ، فبّن الله لهم أن المعركة وما جرى فيها هي بإرادة الله وتدبيره " فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ " . (الأنفال ، الآية : ١٧) ، كما أن في ذلك إشارة إلى أن أمر غزوة بدر الكبرى يجب أن يكون أعظم من أمر الغنائم التى اختلف المسلمون فيها ، فقد عُرف يومها بيوم الفرقان يوم التقى الجمعان .

٣- يقول الله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال ، الآية : ٩).

أليس في ذلك تنبيه للمؤمنين بأن الله تعالى هو الذّي أمدهم بالعون وجعل النصر جائزتهم في ذلك اليوم العظيم من تاريخ الإسلام .

٤- إعداد العدة قبل الخروج للقتال أمر واجب ، وعندما يلتقي الجمعان ، ينبغي على كل مسلم ألا يفرّ من المعركة إلا لتنفيذ خطة عسكرية ، نقرأ ذلك في سورة الأنفال ، حيث يقول الله تعالى وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء

بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال ، الآية : ١٦) ، ويقول تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال الآية ٦٠).

٥- الإتحاد واجتماع الكلمة والنهي عن التنازع ، نجده في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .(الأنفال الآية : ٤٩) فالسورة تعلم المسلمين وترشدهم إلى أبرز عوامل النصر ، وأن التنازع هو أول عوامل الهزيمة.

٦- تذكير للمؤمنين بنعمة الله عليهم ، فقد كانوا في مكة مستضعفين في الأرض: ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الأنفال الآية : ٢٦).

٧- كما تناولت السورة أحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة ، وأحكام العهد بين المسلمين والكفار .

هذا وقد ورد النداء الإلهي في السورة ست مرات، الأولى قوله تعالى : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١)(الأنفال : الآية ١٦ .)

(١)محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار العلم العربي ، ط ١٩٩٤، ٤٩٢/١ تفسير الآية ١٥ من سورة الأنفال.

وفي هذا تحذير من الفرار عند لقاء العدو ومن يخالف ذلك فقد توعده الله بالعذاب الشديد .

الثاني ، في قوله

تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾(الأنفال الآية : ٢٠.) وفيه أمر بطاعة الله ورسوله ونهي عن مخالفة ذلك .

الثالث: ، نداء فيه دعوة للاستجابة لله وللرسول لأنه في ذلك سعادة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، إذ يقول تبارك وتعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال : الآية ٢٤.)

الرابع: ، قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنفال : الآية ٢٧)، تضمن النداء التنبيه إلى عدم إفشاء أسرار المجتمع الإسلامي للعدو ففيه خيانة لله ورسوله ولأمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامس:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الأنفال : الآية ٢٩)وفي هذا النداء بيان بأن التّقوى هي أعظم أركان العقيدة الراسخة إذ ينتج عنها المغفرة وتكفير الذنوب .

السادس : قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الأنفال الآية : ٤٥)، وهو شبيه بالنداء الأول ففيه أمر بالثبات أمام العدو وأمر بذكر الله عند لقائه وعدم الفرار ، فالله ينصر عباده المؤمنين الذاكرين له .

التناسب بين بداية السورة وخاتمتها :

يقول الإمام الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) :

إن ترتيب السور توقيفي ، وإنك إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها " [1] .

وعندما نتأمل سورة الأنفال وننعم النظر في بدايتها ونهايتها ، نجد أنها تبدأ بإصلاح ذات البين " وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ " (الأنفال الآية ١)، وذات البين أي ما بين القوم أو الناس من قرابة وصلة ومودة ، أو عدواة وبغضاء .

وختام السورة هو : " وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ " الأنفال الآية : ٧٥ ، ولا يخفى ما بين أولي الأرحام من قرابة وصلة .فالخاتمة جيدة متسقة مع سياق الآيات كما هو الشأن في كل القرآن الكريم .

وفي أوائل السورة نجد الله – عز وجل – يمدح المؤمنين الصادقين الذين أقاموا الصلاة وينفقون مما رزقهم الله والذين ازدادوا إيماناً بتلاوة آياته البينات ، بقوله : "أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " (الأنفال الآية ٤).

وفي ختام السورة نجده سبحانه وتعالى يقول عن المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم فهاجروا في سبيله وفارقوا الأهل وتركوا الدنيا لأجل الدين ، يقول عنهم : " أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " (الأنفال الآية : ٧٤)

[1] الإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشى ، البرهان في علوم القرآن : تحقيق : أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٣٨ .

فخواتيم السور هي مثل فواتحها في الحسن " لأنها آخر ما يقرع الأسماع ، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة ، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوق النفس إلى ما يذكر بعد[١].

التناسب بين السورة مع ما قبلها وما بعدها:

تسبق سورة (الأعراف) سورة (الأنفال) ،ومناسبة سورة الأنفال لما قبلها أنه لما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء –عليهم السلام– مع أممهم في تلك ، ناسب أن يذكر قصة هذا النّبي – صلى الله عليه وسلم – مع قومه في سورة الأنفال ، وأما مناسبة أولها لآخر تلك ، فقد تبين آخر الأعراف آخر قصة موسى– عليه السلام – المختتمة بقصة بلعام ، وفي آخر ذلك مدح لمن أهلهم سبحانه بالإذعان وتمام الخضوع لله ، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالية ، اقتضى ذلك سؤالاً عن حال الذين مع المخاطب – صلى الله عليه وسلم – فأجيب بقوله تعالى { يَسْأَلُونكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}[٢]

فالسورة التي بعد الأنفال هي سورة براءة ، وقد ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كانت الأنفال من أوائل ما نزل ، وبراءة من آخره ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وقضى النبي– صلى الله عليه وسلم– ولم يبين لنا أنها منها، وظننا أنها منها ، ثم فرّقت بينهما ولم أكتب البسملة "[١].

---

[١] الإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشى ، البرهان في علوم القرآن : تحقيق : أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ١٢٩

[٢] البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢١٧/٨ ،٢١٦

[١] البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ص ١٨٥/٨

وفي ذلك دليل على أن ترتيب سور القرآن هو أمر توقيفي لا اجتهاد للصحابة ومن تبعهم فيه ، ولم تفرق البسملة بين سورتي الأنفال وبراءة ، لأن الصحيح أن البسملة لم تكن فيها لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فيها [٢].

ونجد التناسب الترتيبي في الحديث عن أهل الإيمان والشرك فجاء الكلام في نهاية سورة الأنفال عن الصحابة الذّين وصفهم الله بأّنهم هم المؤمنون حقاً لأنهم هاجروا في سبيل الله وجاهدوا مع رسوله (صلىَّ الله عليه وسلّم) ، فأراد في بداية سورة التوبة الحديث عن أهل الشرك وعن الفئة الثانية (غير المؤمنين) الذين تبرأ منهم الله ورسوله لموالاتهم أهل الشرك والنفاق والكفر و كأنها آية في سورة الأنفال.

والحق أن وجه الصلة والترابط بين سورتي الأنفال والتوبة جعل بعض الصحابة يظنون أنهما سورة واحدة ، فقد تناولتا الجهاد والغزوات والمنافقين ، لذلك يقول السيد محمد رشيد رضا : (فهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع)[٣]

---

[٢] المصدر السابق ، ص٨/ ١٨٥

[٣] السيد محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، دار المنار ، مصر ، ط٢، ١٣٦٧ هـ ، ٣٩١/٩

المبحث الأول

الأسرار البلاغية في استهلال السورة بسؤال الصحابة عن الأنفال وبيان أحكام قسمتها ومصارفها

افتتح الله سبحانه وتعالى السورة بقوله :" ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (الأنفال الآية١)

مما ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما ورد في صحيح مسلم عن سعد ابن أبى وقاص رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر أصبت سيفا لسعيد بن العاص فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : نفلنيه . فقال " ضعه " . ثم قام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " ضعه من حيث أخذته " ثم قام فقال نفلنيه يا رسول الله . فقال " ضعه " فقام فقال يا رسول الله نفلنيه أأجعل كمن لا غناء له ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " ضعه

من حيث أخذته " قال فنزلت هذه الآية " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ " [1]

والناظر في الآية الكريمة يجدها قد استهلت بهذا السؤال الذي يكشف من أول وهلة عن الغرض المراد من الأنفال – وربما من السورة كلها – ولعل هذا ما يناسب المقصود ، فيمكن القول إن في ذلك براعة استهلال ، حيث إن المتكلم يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه حتى يكون أعذب لفظا وأحسن سبكاً وأصح معنى ، منها الابتداء – وهو ما نحن بصدده – لأنه أول ما يقرع السمع فإن ذلك أدعى أن يقبل السامع على الكلام فيعي جميعه [2] .

هذا وفي افتتاح السورة بـ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) ما يؤذن بأن المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمى عندهم " الأنفال " وكان ذلك يوم بدر وأنهم حاوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فمنهم من يتكلم بصريح السؤال ومنهم من يخاصم ، أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنه يتطلب فهماً في هذا الشأن [1].

ثم يأتي قوله تعالى : قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) بمثابة الإجابة الشافية الكافية عن سؤالهم . والملحوظ هنا وضع للمظهر موضع المضمر ، إذ مقتضى الظاهر مثلاً – لو كان في غير القرآن الكريم –أن يُقال : يسألونك عن الأنفال قل هي لله ورسوله ، فيضع الضمير موضع كلمة الأنفال ، ولكن التعبير جاء على خلاف مقتضى الظاهر ، ولعل في ذلك – والله أعلم – إشارة إلى أهمية هذا الأمر لدى المسلمين ، علاوة على ما فيه

---

[1] أخرجه مسلم في (كتاب الجهاد والسير ، باب الأنفال ، رقم ٤٦٥٥)

[2] الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان) قدك له وشرحه على بو ملحم ، دار مكتبة الهلال ،بيرت١٩٩١ / ٣٩٠

[1] الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٩٩٧ م ، ٢٤٧/٩

من لفت للذهن وشحذ للانتباه حتى تعي القلوب وتهدأ النفوس ، فلا يكون في القلب بعد ذلك شيء من شك أو ريب في مسألة الأنفال هذه .

ولعل هذا راجع إلى أبعاد الكلمة القرآنية ، فهي ذات أبعاد عدة كل بُعد منها رافد من روافد الدّلالة على معاني الهدى إلى الصّراط المستقيم الذى جاء القرآن الكريم لتحقيقه : لها بُعد صوتي تنغيمي ، وبُعد هيئة وصيغة ، وبُعد أصل لغوي تكونت منه ، وبعُد موقع وقعت فيه بدوائره المتعددة ، دائرة الموقع في الجملة ، ودائرة الموقع في الآية ، ودائرة الموقع في المعقد (الفصل) ، ودائرة الموقع في السّورة ، ودائرة الموقع في القرآن كله ، هذه خمس دوائر متداخلة ، كل دائرة في داخل التي من بعدها ، وأعمها جميعاً دائرة الموقع والسياق الكلي للقرآن الكريم ، هذه الأبعاد كلها ينحدر منها العطاء الدلالي للكلمة القرآنية ، وعلى قدر وعى المتلقي هذه الأبعاد والجمع بينها في تلقيه يكون اقتداره على أن يقترب من المعنى القرآني الكريم المجيد [1].

هذا وقد جرت العادة في القرآن : أن الله إذا قال لنبيه صلّى الله عليه وسلّم " ويسألونك " قال له " قل " بغير فاء إلا في موضع واحد في سورة طه ورد فيه بالفاء ، وهو قوله تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً " (طه : ١٠٣.)

فقد يسأل سائل ويقول : لم ذلك ؟ أجاب عن ذلك القرطبي – رحمه الله – حيث ورد في تفسيره (وكل سؤال في القرآن " قل " بغير الفاء إلا هنا في الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال ، تلك أسئلة تقدّمت سألوا عنها فأجابهم عقب السؤال .

[1] د/ محمود توفيق محمد سعد ، شذرات الذهب – دراسة في البلاغة القرآنية . / طبعة أولى ١٤٢٢ هـ. ص٣٥

فلذلك كان بغير فاء ، من قبيل " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلْ الرُّوح "(الإسراء ٨٥)،" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ " (البقرة ٢١٩) " وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ " (البقرة ٢١٥) ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيت " (البقرة ١٨٩) ، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَال " (الأنفال ١)، أما في سورة (طه الآية ٢) فهو سؤال لم يسألوه عنه بعد فليفهم ذلك "[٢]

وبذلك يتأكد أن لكل حرف في القرآن موضعه ومكانه اللائق به ، وله غرضه ومقصده ، وما ذلك إلا لأنه " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " (فصلت ٤٢).

ومجيء الفعل بصيغة المضارع " يسألونك " دال على تكرر السؤال إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين ، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد .

وقد فصل بين قوله تعالى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ " وبين قوله " قُلِ الْأَنْفَالُ لله وَالرَّسُول"لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام حيث اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، فالجملة الأولى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ " خبرية لفظا ومعنى ، والجملة الثانية " قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ " إنشائية لفظا ومعنى ، وهذا من مواضع فصل الجمل التي وضعها علماء البلاغة .

---

[٢] القرطبي ، تفسير الجامع لأحكام القرآن – تحقيق / هشام سمير البخاري– دار عالم الكتب – الرياض – المملكة العربية السعودية – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م ١١ / ٢٤٥.

والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود ، لذا وجب الفصل بينهما وتأمل موقع " الفاء " في قوله " فاتقوا الله " وقد أتت للتفريع على جملة " الأنفال لله ورسوله " ، لأن في تلك الجملة رفعاً للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال .

وفي قوله تعالى " فاتقوا الله وأصلحوا " تقديم للتقوى على إصلاح ذات البين ، وفي ذلك ما فيه من بيان أهمية التقوى فهي جامع للطاعات كلها .

وفي توسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله إظهار لكمال العناية بالإصلاح بحسب المقام ، وليندرج بعينه تحت الأمر بالطاعة[١] .

وأسلوب الشرط الذي ختمت به الآية متعلق بالأوامر الثلاثة ، والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه ، هذا وللحذف هنا وقعه ودلالته ، ولذلك تجد شيخ البلاغيين وإمامهم يقول عنه في دلائل الإعجاز " هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن " [١] ويظهر معنى الشرط هنا بعد تلك الجمل{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} ، وهو إلهاب لنفوسهم على الامتثال ، لظهور أن ليس المراد : فإن لم تكونوا مؤمنين فلا تتقوا الله ورسوله ،

ولا تصلحوا ذات بينكم ، ولا تطيعوا الله ورسوله ، فإن هذا معنى لا يخطر ببال أهل اللسان ، ولا يسمح بمثله الاستعمال [٢] .

---

[١] أبو السعود العمادي ،محمد بن مصطفى،تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د.ت ٣/٤

[١]عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز /تحقيق / محمود محمد شاكر –مكتبة الخانجي بالقاهرة ، جـ٥ – ٢٠٠٤ ، ص١٤٦ .

[٢]ابن عاشور ، التحرير والتنوير ،: ٩ /٢٤٥ /١٤٦.

وصف المؤمنين :

يمتدح المولى سبحانه المؤمنين بخلال وصفات واضحة ومحددة فيقول ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الأنفال الآيات ٤/٢) فقد وصفهم الله – عز وجل – بصفات غاية في الشرف وصدق الإيمان بأنهم ممن تجل قلوبهم إذا ذكر الله ، ويزداد إيمانهم عندما تتلى عليهم آياته ، وأنه من ديدنهم التوكل عليه ، وأنهم ممن يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله تعالى .

ومما يلفت النظر ويستدعي الانتباه في هذا الوصف الرباني لأولئك المؤمنين أنه ورد بطريق القصر بـ " إنما " ، وهذا الطريق من طبيعته أنه يدخل على المعاني المسلم بها التي لا تحتاج إلى مؤكدات فهي معان مأنوسة قريبة من النفوس [١]

وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من إنما أن من لم يجل قلبه إذا ذكر الله ، ولم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه ، ولم يتوكل على الله ، ولم يقم الصلاة ، ولم ينفق ، لم يكن موصوفا بصفة الإيمان ، فهذا ظاهر مؤول بما دلت عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنة من أن الإيمان لا ينقصه الإخلال ببعض الواجبات ، فتعين أن القصر ادعائي بتنزيل الإيمان الذي عدم الواجبات العظيمة منزلة العدم ، وهو قصر مجازي لابتنائه على التشبيه ، فهو استعارة مكنية : شبه الجانب المنفي في صيغة القصر بمن ليس بمؤمن ، وطوي ذكر المشبه به ورمز إليه بذكر لازمه وهو حصر الإيمان فيمن اتصف بالصفات التي لم يتصف بها المشبه به ويئول هذا إلى معنى : إنما المؤمنون الذين اكتمل إيمانهم ، فالتعريف في إنما المؤمنون تعريف الجنس المفيد قصرا ادعائيا

---

[١] د/ محمد محمد أبو موسى ، دلالات التراكيب دراسة بلاغية :– مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م: ص ١٥٥ .

على أصحاب هذه الصفات مبالغة ، وحرف (ال) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال .

وقد تكون جملة :إنما المؤمنون مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤال سائل يثيره الشرط وجزاؤه المقدر في قوله : {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(الأنفال ١) بأن يتساءلوا عن هذا الاشتراط بعد ما تحقق أنهم مؤمنون من قبل ، وهل يمترى في أنهم مؤمنون فيجابوا بأن المؤمنين هم الذين صفتهم كيت وكيت ، فيعلموا أن الإيمان المجعول شرطا هو الإيمان الكامل فتنبعث نفوسهم إلى الاتسام به والابتعاد عن موانع زيادته وإذ قد كان الاحتمالان غير متنافيين صح تحميل الآية إياهما توفيرا لمعاني الكلام المعجز فإن علة الشيء مما يسأل عنه ، وإن بيان العلة مما يصح كونه استئنافا بيانيا.

وعلى كلا الاحتمالين وقعت الجملة مفصولة عن التي قبلها لاستغنائها عن الربط وإن اختلف موجب الاستغناء باختلاف الاحتمالين ، والاعتبارات البلاغية يصح تعدد أسبابها في الموقع الواحد لأنها اعتبارات معنوية وليست كيفيات لفظية ، والمعنى ليس المؤمنون الذين كمل إيمانهم إلا أصحاب هذه الصلة التي يعرف المتصف بها تحققها فيه أو عدمه من عرض نفسه على حقيقتها. وقد ذكر البلاغيون مواضع الفصل وعددها وهي الفصل لكمال الإنقطاع بين الجملتين ، وإن لم يكن للأولى حكم كما سبق ،وكمال الإنقطاع يكون للأمر يرجع إلى الإسناد أو إلى طرفيه ، والنوع الثاني الفصل لكمال الإتصال بين الجملتين ويكون في أمور ثلاثة ، الأول تكون الثانية مؤكدة للأولى والمقتضى في التأكيد دفع توهم التجوز والغلط ، ،والثانية أن تكون الثانية بدلا من الأولى والمقتضى كون

الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية ، والثالث أن تكون الثانية بياناً للأولى وذلك بأن تنزل منزلة عطف البيان[1](١)

وتأمل جملة الشرط في قوله " إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " فهم على حالة عظيمة إذا ما ذكر الله جل وعلا ، والمعروف أن ذكر الله سبحانه متعدد الصور والطرق ولكن الآية قد أجملت ذكر الله إجمالاً بديعا ليناسب معنى الوجل ، فذكر الله يكون ، بذكر اسمه وذكر عقابه ، وعظمته ، وذكر ثوابه ورحمته ، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كل المؤمنين ، لأنه يحصل معه استحضار جلال الله وشدة بأسه وسعة ثوابه ، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقع حلول بأسه ، وتوقع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته ، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير وتوقي ما لا يرضي الله تعالى وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب أنه قال " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه " ، وإذ قد كان المقصود من هذا الكلام حث المؤمنين على الرضى بما قسم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم بدر ، وأن يتركوا التشاجر بينهم في ذلك ، ناسب الاقتصار على وجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله ، والوجل في حالين يحصلان للمؤمن عند ذكر الله والحال الآخر هو الأمل والطمع في الثواب فطوى ذكره هنا اعتمادا على استلزام الوجل إياه ، لأن من الوجل أن يجل ، من فوات الثواب أو نقصانة.[1]

ولعل لفتة بلاغية تبدو من خلال اصطفاء الفعل " ذكر " مبنيا للمجهول ، وذلك لعد م تعلق الغرض بالفاعل ، أي بمن قام بالذكر ، ففيه ما فيه من العموم والاختصار ، علاوة على إضفاء مزيد من المهابة والجلال لصاحب الجلال – سبحانه وتعالى – لأجل ذلك

---

[1] القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٤٨-١٤٩

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير : ٩ / ٢٦٠

تجل القلوب لهذا الذكر وما قيل في " ذكر " ينسحب على " تليت " ، والتعبير بالزيادة في قوله تعالى " زادتهم إيمانا " نلمس فيه المجاز العقلي لعلاقة السببية ، وقد عرفه بعض البلاغيين : هو اسناد الشي إلى غير ما يصح الإسناد إليه وهذا ما يسمى بالمجاز العقلي ، حيث أسند زيادة الإيمان إلى الآيات ، وأن تلاوة الآيات تزيد الإيمان ولا تنقصه ، بل هي السبب في ذلك .وتقديم الجار والمجرور في قوله " وعلى ربهم يتوكلون " قد يكون لرعاية الفاصلة ، مع الاهتمام باسم الله ، وقد يكون التقديم تعريضا بالمشركين الذين كانوا يعتمدون ويتوكلون على الأصنام ومجئ الفعل " يتوكلون " بصيغة المضارع يوحي بتجدد توكلهم على الله سبحانة[٢].

وقوله تعالى " الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " قد فصل عن الآية السابقة لما بينهما من كمال الاتصال ، وهو أن تتحد الجملتان اتحادا تاما بحيث تنزل الجملة الثانية من الجملة الأولى المنزلة نفسها ، وقد جاءت الجملة الثانية هنا بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى ، ولعل ذلك يكون اهتماما بهذين اللونين من العبادة دون سواهما ، وهو إقامة الصلاة والإنفاق ، وكأن من يفعل هذين الأمرين مداوما عليهما مما ينطبق عليه وصف الإيمان الكامل .

والتعبير بفعلي المضارع " يقيمون " و " ينفقون " مما يشير إلى دوامهما فعل ذلك وتجدده واستمراره . وتأمل التعبير بـ " يقيمون " دون " يؤدون " مثلا ، فإقامة الشيء أي أداؤه كما ينبغي له أن يؤدى ، بخلاف " يؤدى " فقد " يؤدى " بلا اهتمام أو اكتراث وبلا خضوع أو خشوع .

وأما قوله تعالى

---

[٢] المصدر السابق،: ٩ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال الآية٤)

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)أُولَئِكَ اسم الإشارة مبتدأ، وهم ضمير فصل أو خبر ثان، والمؤمنون خبر على كل حال، والجملة خبر اسم الإشارة، والجملة مستأنفة ، حَقًّا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ حَقًّا مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ كَذَا نَصَّ عَلَيْهِ سِيبَوَيْهِ وَهُوَ الْمَصْدَرُ غَيْرُ الْمُنْتَقِلِ وَالْعَامِلُ فِيهِ أَحَقَّ ذَلِكَ حَقًّا ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ تَأْكِيدٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الْجُمْلَةُ مِنَ الْإِسْنَادِ الْخَبَرِيِّ وَأَنَّهُ لَا مَجَازَ فِي ذَلِكَ الْإِسْنَادِ .

والجملة مُؤَكِّدَةٌ لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ) إِلَى آخِرِهَا وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ. عُرِّفَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ لِوُقُوعِهِ عَقِبَ صِفَاتٍ لَا تَدُلُّ الْإِشَارَةُ عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِالْحُكْمِ الْمُسْنَدِ إِلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الصِّفَاتِ، فَكَأَنَّ الْمُخْبَرَ عَنْهُمْ قَدْ تَمَيَّزُوا لِلسَّامِعِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ فَصَارُوا بِحَيْثُ يُشَارُ إِلَيْهِمْ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ قَصْرٌ آخَرُ يُشْبِهُ الْقَصْرَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ.) حَيْثُ قُصِرَ الْإِيمَانُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى أَصْحَابِ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَلَكِنَّهُ قُرِنَ هُنَا بِمَا فِيهِ بَيَانُ الْمَقْصُورِ وَهُوَ أَنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحِقَّاءُ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ ؛ وَالْحَقُّ أَصْلُهُ مَصْدَرُ حَقَّ بِمَعْنَى ثَبَتَ وَاسْتُعْمِلَ اسْتِعْمَالَ الْأَسْمَاءِ لِلشَّيْءِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ قَالَ تَعَالَى (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (النساء : ١٢٢) ؛ وَيُطْلَقُ كَثِيرًا، عَلَى الْكَامِلِ فِي نَوْعِهِ، الَّذِي لَا سُتْرَةَ فِي تَحَقُّقِ مَاهِيَّةِ نَوْعِهِ فِيهِ، كَمَا يَقُولُ أَحَدٌ لِابْنِهِ الْبَارِّ بِهِ: أَأَنْتَ ابْنِي حَقًّا، وَلَيْسَ يُرِيدُ أَنَّ غَيْرَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ لَيْسُوا لِرِشْدَةٍ وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْتَ بِذَوَّتِكَ وَاضِحَةٌ آثَارُهَا، وَيُطْلَقُ الْحَقُّ عَلَى الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ فَاسْمُ الْحَقِّ يَجْمَعُ مَعْنَى كَمَالِ النَّوْعِ ؛ وَلِكُلِّ صِيغَةِ قَصْرٍ: مَنْطُوقٌ وَمَفْهُومٌ، فَمَنْطُوقُهَا هُنَا أَنَّ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الصِّلَاتُ هُمْ مُؤْمِنُونَ حَقًّا،

وَمَفْهُومُهَا أَنَّ مَنِ انْتَفَى عَنْهُ أَحَدُ مَدْلُولَاتِ تِلْكَ الصِّلَاتِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا كَامِلًا، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ ثَبَتَتْ لَهُ إِحْدَاهَا كَانَ مُؤْمِنًا كَامِلًا، إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِبَقِيَّةِ خِصَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ.[1]

فَمَعْنَى أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا: أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ حَقًّا أَيْ كَامِلًا؛ وَهَذَا تَأْوِيلٌ لِلْكَلَامِ دَعَا إِلَيْهِ الْجَمْعُ بَيْنَ عَدِيدِ الْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ مِنْ ثُبُوتِ وَصْفِ الْإِيمَانِ لِكُلِّ مَنْ أَيْقَنَ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْفَرِدٌ بِالْإِلَهِيَّةِ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، فَتِلْكَ الْأَدِلَّةُ بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ الْمَعْنَوِيِّ الْمُحَصِّلِ لِلْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ بِأَنَّ الْإِخْلَالَ بِالْوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ لَا يُسْلَبُ صِفَةَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ عَنْ صَاحِبِهِ، فَلَيْسَ حَمْلُ الْقَصْرِ عَلَى الِادِّعَائِيِّ هُنَا مُجَرَّدَ صَنْعٍ بِالْيَدِ، أَوْ ذَهَابٍ مَعَ الْهَوَى عَلَى أَنَّ شَأْنَ الِاتِّصَافِ بِبَعْضِ صِفَاتِ الْفَضَائِلِ أَنْ يَتَنَاسَقَ مَعَ نَظَائِرِهَا فَمَنْ كَانَ حَيْثُ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَ قَلْبُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَيْثُ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ زَادَتْهُ إِيمَانًا، فَهَذَا تَحْقِيقُ مَعْنَى الْقَصْرَيْنِ[2].

وَمِمَّا يَزِيدُ هَذَا الْمَعْنَى وُضُوحًا مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ يَا حَارِثُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ قَالَ أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا قَالَ انْظُرْ مَا تَقُولُ- أَوِ انْظُرْ مَا تَقُولُ- إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ قَالَ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ، وَكَأَنِّي أسمع عواء أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَ لَهُ يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ ثَلَاثًا وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ وَإِنْ كَثُرَتْ طُرُقُهُ ؛ فَقَوْلُ الْحَارِثِ « أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا»[1] ونصب حَقًّا على أنه صفة مصدر محذوف

---

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٩ ،٢٦٠

[2] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٩٩ ٢٦٠

فالعامل فيه المؤمنون أي إيمانا حقا أو هو مؤكد لمضمون الجملة فالعامل فيه حق مقدر، وقيل: إنه يجوز أن يكون مؤكدا لمضمون الجملة التي بعده فهو ابتداء كلام، وهو مع أنه خلاف الظاهر إنما يتجه على القول بجواز تقديم المصدر المؤكد لمضمون الجملة عليها والظاهر منعه كالتأكيد، واستدل بعضهم بالآية على أنه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لأنه سبحانه وتعالى: إنما وصف بذلك أقواما على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه بل يلزمه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله تعالى.

وقرر بعضهم وجه الاستدلال بما يشير إليه ما روي عن الثوري أنه قال: من زعم أنه مؤمن بالله تعالى حقّا ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ولم يؤمن بالنصف الآخر، وهذا ظاهر في أن مذهبه الاستثناء، وهو كما قال الإمام مذهب ابن مسعود تبعه جمع عظيم من الصحابة والتابعين، و به قال الشافعي ونسب إلى مالك وأحمد، ومنعه الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه وروي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: إتباعا لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (الشعراء الآية ٨٢) فقال له: هلا اقتديت به في قوله؟ قال :بلى حين قيل له :أو لم تؤمن؟ فانقطع قتادة قال الرازي كان لقتادة أن يجيب أبا حنيفة عليهما الرحمة ويقول: قول إبراهيم عليه السلام (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) وذلك بعد قوله بلى طلب لمزيد الطمأنينة وذلك يدل على جواز الاستثناء[1].

والحق أن من جوز الاستثناء إنما جوز إذا سئل عن الإيمان مطلقا أما إذا قيل: هل أنت مؤمن بالقدر مثلا فقال: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى لا يجوز لا لأن التبرك لا معنى له

[1] لألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر بيروت، لبنان١٣٩٨هـ . ٧/ ١٦.

بل للإبهام فيما ليس له فائدة، وأما في الأول فلما كان الإطلاق يدل على الكمال وهو الإيمان المنتفع به في الآخرة علق بالمشيئة تفاؤلا وتيمنا، وذلك لأن هذه الكلمة خرجت عن موضوعها الأصلي إلى المعنى الذي ذكر في عرف الاستعمال تراهم يستعملونها في كل ما لهم اهتمام بحصوله شائعا بين العرب والعجم فلا وجه لقول من قال: إن معنى التبرك أنا أشك في إيماني تبركا وذلك لأن المشيئة غير مشكوكة عنده بل هو تعليق بما لا بد منه نظرا إلى أنه السبب الأصلي وأنه تفويض من العبد إلى الله تعالى ومن فوض كفى لا نظرا إلى أن المشيئة غيب غير معلوم فيكون شكا في الإيمان، وقد جاء «من شك في إيمانه فقد كفر» ، وما أحسن ما نقل عن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى (إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ .. إلخ) فو الله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وهذا ونحوه مما يجعل الخلاف لفظيا، وقد صرح بذلك جمع من المحققين عليهم الرحمة [1] .

(لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) لهم جار و مجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ودرجات مبتدأ مؤخر، وعند ربهم ظرف متعلق بدرجات لأنها بمعنى أجور أو يتعلق بمحذوف صفة لدرجات لأنها نكرة، ومغفرة ورزق كريم عطف على درجات.

ومعنى (لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أي كرامة وعلو مكانة على أن يراد بالدرجات العلو المعنوي وقد يراد بها العلو الحسي [2] ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَالْجُمْهُورُ: إِنَّ الْمُرَادَ مَرَاتِبُ الْجَنَّةِ وَمَنَازِلُهَا وَدَرَجَاتُهَا عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، وَحَكَى الطَّبَرِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا دَرَجَاتُ أَعْمَالِ

---

[1] المصدر السابق نفسه، . ج ٧ ص ١٦.

[2] الألوسي روح المعاني ج ٧ ص ١٧ .

الدُّنيا [1]وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: « في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم» وعن الربيع بن أنس «سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس المضمر السبعين سنة» ووجه الجمع على الوجهين ظاهر، والتنوين للتفخيم والظرف، إما متعلق بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لما أفاده التنوين أو بما تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار.

وجوز أبو البقاء أن يكون الـ عامل فيه دَرجاتٌ لأن المراد بها الأجور، وفي إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشريف لهم ولطف بهم وإيذان بأن ما وعدهم متيقن الثبوت مأمون الفوات، والجملة جوز أن تكون خبرا ثانيا لأولئك وأن تكون مبتدأ مبنية على سؤال نشأ من تعدد مناقبهم كأنه قيل: ما لهم بمقابلة هذه الخصال؟ فقيل: لهم درجات وَمَغْفِرَةٌ عظيمة لما فرط منهم وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد القرظي قال: إذا سمعت الله تعالى يقول رزق كريم فهو الجنة. والكرم كما نقل الواحدي اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن في بابه فلعل وصف الرزق به هنا حقيقة.[2]

و معنى كون الرزق كريما أن رازقه كريم، ومن هنا وصفوه بالكثرة وعدم الانقطاع إذ من عادة الكريم أن يجزل العطاء ولا يقطعه فكيف بأكرم الأكرمين تبارك وتعالى، وجعله نفسه كريما على الإسناد المجازي للمبالغة، ولم يذكروا لتوسيط المغفرة، والظاهر كما قيل تقديمها هنا نكتة، وربما يقال في وجه ذكر هذه الأشياء الثلاثة على هذا الوجه أن الدرجات في مقابلة الأوصاف الثلاثة أعني الوجل والإخلاص والتوكل، ويستأنس له بالجمع والمغفرة في مقابلة إقامة الصلاة ويستأنس له بما ورد في غير ما خبر أن

---

[1] أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، دار الفكر ، بيروت لبنان . ج ٦ ،ص ٣

[2] الالوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن النظم والسبع المثاني ، ج٣،ص

الصلوات مكفرات لما بينها من الخطايا وأنها تنقي الشخص من الذنوب كما ينقّى الماء من الدنس، والّرزق الكريم بمقابلة الإنفاق، والمناسبة في ذلك ظاهرة، وإلى هذا يشير كلام أبي حيان أو يقال: قدم سبحانه الدرجات لأنها بمحض الفضل، وذكر بعدها المغفرة لأنها أهم عندهم من الرزق مع اشتراكهما في كونهما في مقابلة شيء، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد أنه قال في الآية: المغفرة بترك الذنوب والرزق الكريم بالأعمال الصالحة فتدبر والله تعالى أعلم بأسرار كلامه [1].

المبحث الثاني

[1] نفس المصدر السابق، جـ٧ ، ص١٤٢ .

الأسرار البلاغية في مقام ذكر الخروج إلى غزوة بدر .

وجوب الطاعة أدلة وشواهد :

لعل أّول مشهد يطالع القارئ لأحداث غزوة بدر من خلال السورة الكريمة ، هو مقام الاستعداد للخروج وتجهيز الجيش وما كان بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وبين النبي – صلى الله عليه وسلم – من حوار وصل إلى حد الجدال من جانب الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم لذلك نلاحظ أن الجدال منسوب إلى الصحابة رضي الله عنهم ولم يقل " تتجادلون " لأن هذه الصيغة تفيد المشاركة في الفعل والّنبي –صلّى الله عليه وسلم – قد عصمه الله من ذلك ونزهه عن ذلك الجدل وقد صور القرآن الكريم هذا الجدال في أسلوب بلاغي يجعل الحديث متصلا بما قبله من سؤال الصحابة عن قسمة الغنائم وانشغال بعضهم بطريقة قسمتها وتوزيعها.

قال تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} (الأنفال الآية ٥)

وبداية يمكن القول إنه قد اختلف العلماء في متعلق هذه " الكاف " وأوصلها بعض المفسّرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً [١] .

بينما نجد الإمام ابن الجوزي يذكر فيها خمسة أقوال ، ويمكن الاكتفاء بقول واحد من تلك الأقوال ، وهو أنها متعلقة بالأنفال ، أي : امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت في خروجك من بيتك وهم كارهون .[١]

---

[١] ابو حيان الاندلسي : البحر المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، ٤٥٩/٤ ، والألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨ هـ ، ١٦٩/٣ ، والعجيلي : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، دار الفكر ، ٢/ ٢٢٦ .

أّما الإمام الزمخشري فقد اقتصر على ذكر وجهين : أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك ،

يعني أن حالهم في كراهة تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب.[٢]

ولعل هذين القولين هما أقرب إلى المعنى من بقية الأقوال التي يظهر عليها التّكلف فالكاف إذاً للتشبيه بمعنى مثل ، وهي خبر لمبتدأ محذوف هو المشبه ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه الشبه مطلق الكراهة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين ، والمعنى : حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ، مثال حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال ، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة[٢].

التشبيه :

في قوله تعالى﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾(الأنفال الآية٥).

تشبيه حال بحال، وهو متصل بما قبله: إما بتقدير مبتدأ محذوف، هو اسم إشارة

لما ذكر قبله، تقديره: هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع

---

[١] ابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ، طبعة المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط/٣ ، ١٤٠٤ هـ ، ٣ / ٣٢١

[٢] الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة بيروت ، ٢ / ١٤٣ .

[٢] د. محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مطبعة السعادة ١٣٩٩ هـ ، ص ٤٢ . وبنظر آيات القتال في سورة الأنفال دراسة وتحليل د/ عبد الخالق عبد الدايم القاضي – مجلة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية : ١٩ ، ٢٠ – العدد الثالث عشر – ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م .

وإما بتقدير مصدر لفعل الاستقرار الذي يقتضيه الخبر بالمجرور في قوله الأنفال لله والرسول [الأنفال: ١] إذ التقدير: ا ستقرت لله والرسول استقرارا كما أخرجك ربك، أي فيما يلوح إلى الكراهية والامتعاض في بادئ الأمر، ثم نوالهم النصر والغنيمة في نهاية الأمر، فالتشبيه تمثيلي وليس مراعى فيه تشبيه بعض أجزاء الهيئة المشبهة ببعض أجزاء الهيئة المشبه بها، أي أن ما كرهتموه من قسمة الأنفال على خلاف مشتهاكم سيكون فيه خير عظيم لكم، حسب عادة الله تعالى بهم في أمره ونهيه.[١] فجملة: وإن فريقا في موضع الحال والعامل فيها أخرجك ربك هذا وجه اتصال كاف التشبيه بما قبلها على ما الأظهر،وللمفسرين وجوه كثيرة بلغت العشرين قد استقصاها ابن عادل[٢].

وجه هذا التَّشبيه:

أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا رأى كثرة المشركين يوم بدرٍ ، وقلَّة المؤمنين قال : مَنْ قتلقتيلاً فله كذا ، ومَنْ أسر أسيراً فله كذا ، لِيرغِّبهُم في القتال ، فلمَّا انهزم المشركون قال سعدٌ : يا رسول اللَّهِ إنَّ جماعة من أصحابك وقومك فدوك بأنفسهم ، ولم يتأخَّروا عن القتال جُبْناً ، ولا بُخْلاً ببذل مهجتهم ، ولكنَّهم أشفقوا عليك من أن تُغتال ، فمتى أعطيت هؤلاء ما سميته لهم؛ بَقِي خلقٌ من المسلمين بغير شيء؛ فأنزل اللَّهُ تعالى السورة .

وقال أيضا:

فأمسك المسلمون عن الطَّلبِ ، وفي أنفس بعضهم شيء من الكراهة وحين خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة على ما سنشرحه ، فلمَّا قال : {قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول } [الأنفال : ١] كان التقدير : أنَّهم رضوا بهذا

---

[١] ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ، ٩ / ٢٦٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ٩ / ٢٦٤

الحكم في الأنفالِ وإن كانُوا كارهين له كما أخرجك ربك من بيتك بالحقِّ إلى القتال ، وإن كانُوا كارهين.[١]

وجوه اتصال كاف التشبيه بما قبلها :

الأول : وفيه التفات :

هذا على ما قدره ابن عادل في " اللباب " أن وجه الشبه فيما رواه عن عكرمة قوله:

" وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد " .[٢]

الثاني :تقديره وأُطيعوا اللّه ورسولهُ طاعةً محققةً ثابتةً كما أخرجك ، أي : كما أنَّ إخراج اللّه إياك لا مرية فيه ولا شبهة .

الثالث: تقديره : يتوكّلون توكلاً حقيقياً كما أخرجك ربُّك .

الرابع : تقديره :هم المؤمنون حقّاً كما أخرجك فهو صفةٌ ل « حقاً » .

الخامس : تقديره : استقرَّ لهم درجاتٌ وكذا استقراراً ثابتاً كاستقرار إخراجك .

السادس : أنَّهُ متعلقٌ بما بعده تقديره : يجادلونك مجادلةً : كما أخرجك ربك ، قال الكسائيُّ « الكاف » تتعلّقُ بما بعده وهو قوله : { يُجَادِلُونَكَ فِي الحق } [الأنفال : ٦] والتقدير : { كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بالحق } على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه .

---

[١] ابن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب تحقيق عادل أحمد وآخرين، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ١٩٩٨ / ٤٥

[٢] المصدر نفسه ٩ / ٤٥١.

السابع : تقديره :لكارهون كراهيةً ثابتةً : كما أخرجك ربُّك أي : إنَّ هذين الشيئين الجدال والكراهية ثابتان لا محالة كما أنَّ إخراجك ثابت لا محالة .

الثامن : أنَّ « الكافَ » بمعنى « إذ » ، و « مَا » زائدة ، والتقديرُ : اذكر إذ أخرجك وهذا فاسدٌ جدّاً ، إذ لم يثبتْ في موضعٍ أنَّ « الكاف » تكون بمعنى « إذ » وأيضاً فإنَّ « ما » لا تزاد إلاَّ في مواضع ليس هذا منها .

التاسع : أنَّ « الكافَ » بمعنى : « واو » القسم ، و « ما » بمعنى « الذي » واقعةٌ على ذي العلم مُقْسَماً به .هذا على ما قدره ابن عادل في " اللباب " أن وجه الشبه فيما رواه عن عكرمة قوله:

إنّها في محل رفع أيضاً عن خبر ابتداء مضمر ، والمعنى : أنَّه شبَّه كراهية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروجه من المدينة ، حين تحققوا خروج قريشٍ للدفع عن أبي سفيان وحفظ غيره بكراهيتهم لنزع الغنائم من أيديهم ، وجعلها للَّه ورسوله ، يحكم فيها ما يشاء . واختار الزمخشري هذا الوجه وحسَّنه .

فقال : « يرتفع محلُّ الكاف على أنه خبر ابتداء محذوف تقديره : هذه الحالُ كحالِ إخراجك ، يعني أنَّ حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب » . وهذا الذي حسَّنه الزمخشريُّ هو قول الفرَّاءِ – وقد شرحه ابنُ عطيَّة بنحو ما تقدَّم من الألفاظ – فإنَّ الفرَّاء قال : « هذه الكاف شبَّهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصَّة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال » .

العاشر : أنَّ التَّشبيه وقع بين إخراجين ، أي : إخراج ربك إيَّاك من بيتك ، وهو مكَّة وأنت كارهٌ لخروجك ، وكان عاقبة ذلك الإخراج النَّصر والظفر كإخراجه إيَّاك من المدينة

وبعضُ المؤمنين كارهٌ ، يكون عقيب ذلك الخروج الظفُر والنصرُ والخيرُ ، كما كان عقيب ذلك الخروج الأول .

الحادي عشر : أن تتعلَّق الكافُ بقوله : «فاضْرِبُوا »، وبسْطُ هذا على ما قالهُ صاحب هذا الوجه أن تكون الكاف للتشبيه على سبيل المجاز كقول القائل لعبده : كما رجعتك إلى أعدائي فاستضعفوك ، وسألت مدداً فأمددتُكَ ، وأزحت عللك ، فخذهم الآن وعاقبهم ، كما أحْسَنْتُ إليك وأجريت عليك الرزق ، فاعملْ كذا ، واشكرني عليه ، فتقدير الآية : كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق وغشَّاكم النُّعاسَ أَمَنةً منه ، وأنزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وأنزل عليكم من السَّماء ملائكة مردفين فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كُلَّ بنان . كأنه يقولُ : قد أَزَحْتُ عللكم ، وأمددتكم بالملائكة ، فاضربُوا منهم هذه المواضع وهو القتل ، لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحقِّ وإبطال الباطلِ ، وهذا الوجه بعد طوله لا طائل تحته لبُعدِه من المعنى وكثرة الفواصل .

الثاني عشر : التقدير : كما أخرجك ربك من بيتك بالحقِّ ، أي : بسبب إظهار دين اللَّهِ ، وإعزاز شريعته ، وقد كرهوا خروجك تَهَيُّباً للقتال وخَوْفاً من الموت إذ كان أمر النبي – عليه الصَّلاة والسَّلام – بخروجهم بغتةً ، ولم يكونُوا مُستعِدِّين للخروج ، وجادلوك في الحقِّ بعد وضوحه نصرك اللَّهُ وأمدَّك بملائكته ودلَّ على هذا المحذوفِ الكلامُ الذي بعده ، وهو قوله { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم } [الأنفال : ٩]الآيات وهذا الوجهُ استحسنه أبو حيَّان ، وزعم أنه لَمْ يُسْبَق به (١).

ثم قال : « ويظهُر أنَّ الكاف ليست لمحضِ التَّشبيه ، بل فيها معنى التَّعليل » .

---

(١)ابن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب ٩ /٤٥١ إلى ٤٥٣.

وقد نصَّ النحويُّون على أنَّها للتعليلِ وخرَّجُوا عليه قوله تعالى : { واذكروه كَما هَداكُم } (البقرة١٩٨). وأنشدوا : [الرجز]

-لا تَشْتُمِ النَّاسَ كَما لا تُشْتَمُ ... أي : لانتفاءِ شتم النَّاس لك لا تشتمهم .[١]

معنى الخروج :

وَالْإِخْرَاجُ: إِمَّا مُرَادٌ بِهِ الْأَمْرُ بِالْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ، وَإِمَّا تَقْدِيرُ الْخُرُوجِ لَهُمْ وَتَيْسِيرُهُ.

وَالْخُرُوجُ مُفَارَقَةُ الْمَنْزِلِ وَالْبَلَدِ إِلَى حِينِ الرُّجُوعِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي خُرِجَ مِنْهُ ، أَوْ إِلَى حِينِ الْبُلُوغِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْمُنْتَقَلِ إِلَيْهِ ، وَالْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَيْتِ: هُوَ الْإِخْرَاجُ الْمُعَيَّنُ الَّذِي خَرَجَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَازِيًا إِلَى بَدْرٍ.

وَالْبَاءُ فِي بِالْحَقِّ لِلْمُصَاحَبَةِ " أَيْ إِخْرَاجًا مُصَاحِبًا لِلْحَقِّ، وَالْحَقُّ هُنَا الصَّوَابُ، لِمَا تَقَدَّمَ آنِفًا مِنْ أَنَّ اسْمَ الْحَقِّ جَامِعٌ لِمَعْنَى كَمَالِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَحَامِدِ نَوْعِهِ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ أُمِرُوا مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ فِي حَالِ كَرَاهَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ الْخُرُوجَ ".[٢]

سَبَبِ الخروج:

وَقَدْ أَشَارَ هَذَا الْكَلَامُ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي خرج بِهِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى بَدْرٍ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَائِلِ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ أَنْ قَفَلَتْ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالٌ وَتِجَارَةٌ لَهُمْ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، رَاجِعَةً إِلَى مَكَّةَ، وَفِيهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فِي زُهَاءِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا بَلَغَ خَبَرُ هَذِهِ الْعِيرِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ

---

[١] المصدر نفسه ٩ / ٤٥١.

[٢] ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ، ٢٦٤/٩

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا فَانْتَدَبَ بَعْضُهُمْ وَتَثَاقَلَ بَعْضٌ، وَهُمُ الَّذِينَ كَرِهُوا الْخُرُوجَ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَثَاقَلُوا وَمَنْ لَمْ يَحْضُرْ ظُهُورُهُمْ أَيْ رَوَاحِلُهُمْ فَسَارَ وَقَدِ اجْتَمَعَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ خَرَجُوا يَوْمَ ثَمَانِيَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ لَا يَلْقَوْنَ حَرْبًا وَأَنَّهُمْ يُغِيرُونَ عَلَى الْعِيرِ ثُمَّ يَرْجِعُونَ، وَبَلَغَ أَبَا سُفْيَانَ خَبَرُ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ فَأَرْسَلَ صَارِخًا يَسْتَصْرِخُ قُرَيْشًا لِحِمَايَةِ الْعِيرِ، فَتَجَهَّزَ مِنْهُمْ جَيْشٌ، وَلَمَّا بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ وَادِي ذَفِرَانَ بَلَغَهُمْ خُرُوجُ قُرَيْشٍ لِتَلَقِّي الْعِيرِ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِالْمُضِيِّ فِي سَبِيلِهِ وَكَانَتِ الْعِيرُ يَوْمَئِذٍ فَاتَتْهُمْ، وَاطْمَأَنَّ أَبُو سُفْيَانَ لِذَلِكَ فَبَلَّغَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ نَجَّى عِيرَكُمْ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا (وَكَانَ بَدْرٌ مَوْضِعَ مَاءٍ فِيهِ سُوقٌ لِلْعَرَبِ فِي كُلِّ عَامٍ) فَنُقِيمُ ثَلَاثًا، فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ وَنَسْقِي الْخَمْرَ وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَتَسَامَعُ الْعَرَبُ بِنَا وَبِمَسِيرِنَا فَلَا يَزَالُوا يَهَابُونَنَا وَيَعْلَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُصِبِ الْعِيرَ، وَأَنَّا قَدْ أَعْضَضْنَاهُ، فَسَارَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى بَدْرٍ وَتَنَكَّبَتْ عِيرُهُمْ عَلَى طَرِيقِ السَّاحِلِ وَأَعْلَمَ اللَّهُ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَأَعْلَمَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَشَارَهُمْ وَقَالَ: الْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمِ النَّفِيرُ، فَقَالَ أَكْثَرُهُمُ الْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَعَادَ اسْتِشَارَتَهُمْ فَأَشَارَ أَكْثَرُهُمْ قَائِلِينَ: عَلَيْكَ بِالْعِيرِ فَإِنَّا خَرَجْنَا لِلْعِيرِ فَظَهَرَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِهِ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَأَكْثَرُ الْأَنْصَارِ، فَفَوَّضُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مَا يَرَى أَنْ يَسِيرَ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُمْ حِينَئِذٍ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى الْقَوْمِ بِبَدْرٍ فَسَارُوا. وَكَانَ النَّصْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي عَزَّ بِهِ الْإِسْلَامُ وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَلَى نِيَّةِ التَّعَرُّضِ لِلْعِيرِ، وَأَنْ لَيْسَ دُونَ الْعِيرِ قِتَالٌ،

فَلَمَّا أَخْبَرَهُم عَنْ تَجَمُّعِ قُرَيْشٍ لِقِتَالِهِم تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَحْسَنَ، وَتَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ [1].

التوكيد في الآية: حيث أكد الكلام في الآية الكريمة ب " إنَّ " و " اللام " في قوله : " وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ " [2].

تنزيل السامع غير المنكر منزلة المنكر وذلك لأن الخبر الإنكاري يؤكد بأكثر من مؤكد.

قال ابن عاشور:" وَتَأْكِيدُ خَبَرِ كَرَاهِيَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِنَّ وَلَامِ الِابْتِدَاءِ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِ هَؤُلَاءِ بِتَنْزِيلِ السَّامِعِ غَيْرِ الْمُنْكِرِ لِوُقُوعِ الْخَبَرِ مَنْزِلَةَ الْمُنْكِرِ لِأَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ لَا يَقَعَ ، إِذْ كَانَ الشَّأْنُ اتِّبَاعُ مَا يُحِبُّهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوِ التَّفْوِيضُ إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكْرَهُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ " [3].

الكناية:يقول القزويني في تعريفها "لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ"[4]. وهي أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورد في الوجود فيوحي به إليه فيجعله دليلاً عليه مثل قولهم –هو طويل النجاد يريد طويل القامة .

وذلك كقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتا

---

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير : ٩ / ٢٦٤.

[2] المصدر السابق ٩/٢٦٤ ، ٢٦٥.

[3] المصدرالسابق: ٩ / ٢٦٥.

[4] الخطيب القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد القادر الفاصيلي ،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت،٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ،ص٣١٣.

و حيث إن صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكونوا منكرين لما وقع بهم من كراهية ملاقاة العدو لأنهم كانوا على غير استعداد لملاقاتهم فكان تنزيله للسامع غير المنكر منزلة المنكر فيه كناية عن تلك الطائفة المخبر عنها أفادت التعجب من حالها

قال ابن عاشور :

" وَيَتَلَزَّمُ هَذَا التَّنْزِيلُ التَّعْجِيبَ مِنْ حَالِ الْمُخْبَرِ عَنْهُمْ بِهَذِهِ الْكَرَاهِيَةِ فَيَكُونُ تَأْكِيدُ الْخَبَرِ كِنَايَةً عَنِ التَّعْجِيبِ مِنَ الْمُخْبَرِ عَنْهُمْ ".ولا تخفى اللمسة البلاغية هنا في الإشارة إلى حذف المسند إليه ، فالقوم يكرهون القتال ، فالنفوس ضاقت على أنفسها ومن ثم ناسب المقام والسياق هذا الحذف "[١].والمسند إليه محذوف تقديره –وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون القتال .

توكيد آخر:

والتعبير " بأخرجك " بصيغة الماضي يؤكد ويثبت هذا الخروج ، وإسناد الإخراج إليه سبحانه تجد فيه التأكيد على أن ما يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس من بنات أفكاره ، بل هو وحى يوحى .

وتأمل التعبير بالربوبية في قوله " أخرجك ربك " وكيف أضفى ما أضفى من مشاعر الحرص والرعاية لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وإضافة كاف الخطاب المشار بها للنبي – عليه السلام – للرب تؤكد وتقوي هذه المعاني .

[١] ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ، ٩/٢٦٤

وفي قوله " بالحق " احتراس ، بأنه عليه السلام لم يخرج من تلقاء نفسه ، وفي ذلك تأكيد فوق تأكيد على أن ما يقوم به (صلى الله عليه وسلم) إنما هو استجابة لأوامره سبحانه .

ثم جاء التذييل في قوله عز وجل " وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون " ليؤكد به سبحانه ما اعتملت عليه نفوس القوم من بغض وكراهة ما هم فيه ، وقد ناسبت هذه الكراهة المتناهية تعدد أدوات التأكيد في القول الكريم ، حيث أتى التأكيد ب " إن " واسمية الجملة ، ولام التأكيد .وتأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بإن ولام الابتداء مستعمل في التعجب من شأنهم بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر لأن وقوع ذلك مما شأنه أن لا يقع ، إذ كان الشأن اتباع ما يحبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو التفويض إليه ، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو .

ويستلزم هذا التنزيل التعجب من حال المخبر عنهم بهذه الكراهية فيكون تأكيد " الخبر كناية عن التعجب من المخبر عنهم [1].

وتلحظ تكرار حرف " الكاف " في هذه الآية الكريمة خمس مرات مما أضفى جوا من النغم الحزين الذى يتواءم ويتناغم مع الحالة النفسية التي عليها القوم .

وبعد هذا نستطيع أن نستخلص المعنى الإجمالي لهذه الوحدة القرآنية ، حيث إن الله تعالى يخبر رسوله بأن هذه الحال المتعلقة بالغنائم وكيفية قسمتها وكراهة البعض منهم ذلك ، تشبه حالهم عند خروجك من بيتك من المدينة بأمر الله لك لمواجهة النفير وهم كفار قريش الذين نفروا لاستئصال الإسلام والمسلمين ، لقد أخرجك ربك ، وأنت ملتبس

---

[1] ابن عاشور التحرير والتنوير: ٩ / ٢٦٧ .

بالحق وسداد الرأي ، في الوقت الذي كان فريق من أصحابك المؤمنين كارهين للخروج ، لأنهم لم يكونوا مستعدين للقاء العدو ومواجهته ولأنهم آثروا لقاء العير لما فيها من المال فقد حاولوا مجادلتك في الأمر الحق الواضح الجلي ، وهذا كله بعد أن ظهر الحق واستبان ، لأنَّ الذي لا ينطق عن الهوى قد أخبرهم أنَّ العاقبة للمتقين وأنَّ النصر للمؤمنين ، فالله قد وعد بالظفر بإحدى الطائفتين ، ولا يمكن أنْ يتخلف وعد الله

تهيئة الرجال :

قال تعالى("يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ)(الأنفال الآية٦)

التعبير بالمضارع أفاد تكرار المجادلة: ((يجادلونك))

يشرع المولى عز وجل في بيان حال هؤلاء ، فيأتي قوله: " يجادلونك" : كاشفا عن حالهم ، وورد التعبير بالفعل المضارع لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجب منها.

لوم الصحابة:

أي لومهم على جدالهم بعدما تبين لهم أنَّ أبا سفيان قد نجا بالعير ولم يبق إلاَّ النفير ، فكان يجب عليهم التسليم والإذعان وعدم المجادلة لأنَّ نظرة الرسول صائبة ونظرتهم بالنسبة له قاصرة ولا تقاس الأمور بكثرة العدد والعدة ، فالنصر من عند الله وهذا هو الذي حدث وتمخضت عنه المعركة .

قال ابن عاشور :

"وقوله: بعدما تبين لومٌ لهم على المجادلة في الخروج الخاص، وهو الخروج للنفير وترك العير، بعد أن تبين أي ظهر أن الله قدر لهم النصر، وهذا التبين هو تبين في ذاته سواء شعر به كلهم أو بعضهم فإنه بحيث لا ينبغي الاختلاف فيه، فإنهم كانوا عربا أذكياء وكانوا مؤمنين أصفياء، وقد أخبرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن الله ناصرهم على إحدى الطائفتين: طائفة العير أو طائفة النفير، فضمنوا إذن مضمون، ثم أخبرهم بأن العير قد أخطأتهم، وقد بقي النفير، فكان بينا أنهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه، ثم رأوا كراهة النبي –صلى الله عليه وسلم– لما اختاروا العير، فكان ذلك كافيا في اليقين بأنهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم لا محالة، ولكنهم فضلوا غنيمة العير على خضد شوكة أعدائهم ونهوض شوكتهم بنصر بدر، فذلك معنى تبين الحق أي رجحان دليله في ذاته، ومن خفي عليه هذا التبين من المؤمنين لم يعذره الله في خفائه عليه" [1].

وتبيَّن بعد الصواب وأنَّ اعتذارهم لم يكن صائباً وخورهم لم يكن لائقاً ، ولقد صور الله عزَّ وجلَّ شدة خوفهم وفزعهم من عدوهم وكيف استولى عليهم ذلك كأنما (يساقون إلى الموت وهم ينظرون) وجملة : كأنما يساقون إلى الموت في موضع الحال من الضمير المرفوع في يجادلونك أي حالتهم في وقت مجادلتهم إياك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت ، والمراد بالموت الحالة المضادة للحياة وهو معنى تكرهه نفوس البشر ، ويصوره كل عقل بما يتخيله .

التشبيه ودلالته:

---

[1] ابن عاشور التحرير والتنوير: ، ٩ / ٢٦٥.

في قوله تعالى : (كأنما يساقون إلى الموت) تشبيه لحالهم ، في حين المجادلة في اللحاق بالمشركين ، بحال من يجادل ويمانع من يسوقه إلى ذات الموت .

وهذا التفسير أليق بالتشبيه لتحصل المخالفة المطلقة بين الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من الفظاعة والبشاعة .[٢]

وقال الألوسي :

"كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الموت" أي مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل ، فالجملة في محل نصب على الحالية من ضمير { لكارهون } [الأنفال : ٥] وجوز أن تكون صفة مصدر لكارهون بتقدير مضاف أي لكارهون كراهة ككراهة من سيق للموت { وَهُمْ يَنظُرُونَ } حال من ضمير يساقون وقد شاهدوا أسبابه وعلاماته ، وفي قوله سبحانه وتعالى : { كَأَنَّما } الخ إيماء إلى أن مجادلتهم كان لفرط فزعهم ورعبهم لأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً في قول فيهم فارسان المقداد بن الأسود . والزبير بن العوام ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه ما كان منا فارس يوم بدر إلا المقداد وكان المشركون ألفاً قد استعدوا للقتال[١]

أي أنهم يكرهون القتال ومواجهة العدو وهم على تلك الحال ، كما يكره من يساق إلى الموت وهو ينظر إلى مقدماته وأسبابه ، ويشاهد حتفه ومصيره ، فلا مفر منه ولا هرب مهما بذل من أسباب النجاة فلن يفلت من ذلك ، والسبب باتصافهم بهذه الحال أنهم رأوا الفرق الشاسع بينهم وبين عدوهم في العدد والعدة ، ونسوا وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد

---

[٢] المصدر السابق: ، ٩ / ٢٦٨

[١] الألوسي : شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٧١/٩ .

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (الروم الآية: ٤٧). وأنَّ النصر ليس بكثرة العدد ، فكم من فئة مؤمنة صادقة قليلة غلبت فئة كثيرة كافرة بإذن الله تعالى .

الالتفات في الآية من الغيبة إلى الخطاب :وذلك في الانتقال من قوله تعالى : " ُجَادِ لُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ الأنفال: ٦) ((وهم ينظرون)) تقدم المسند إليه (هم) وفي جملة ينظرون ضمير فكأنما أتى الضمير مرتين للتأكيد ، إلى قوله تعالى (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (الأنفال :الآية ٧)

قال الألوسي :

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين } كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله تعالى بالمؤمنين مع ما بهم من الجزع وقلة الحزم ، فإذ نصب على المفعولية بمضمر إن كانت متصرفة أو ظرف لمفعول ذلك الفعل ، وهو خطاب للمؤمنين بطريق التلوين والالتفات " [1].

علاقة الآية بأول السورة:

وعلاقة هذه الآية بأول السورة أن السورة بدأت بسؤال الصحابة عن الأنفال فجاء الجواب عن قولهم بجملة طلبية صيغتها الأمر وهي قوله تعالى " قل الأنفال .." ، ثم عطف عليها هنا جملة " وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ " ، والنحاة يقدرون قبل " إذ" فعل أمر تقديره " اذكر " ، فيكون بينهما من المناسبة ما لا خفاء به كما أشار إلى ذلك " ابن عاشور"

[1] الألوسي ، روح المعاني ، ٩ /١٧١ . وانظر تفسير أبو السعود ٩٧/٣ .

حكاية عن الزمخشري قوله:رأى صاحب الكشاف أن " إذ "مفعولاً لفعل (اذكر) محذوف شأن إذ الواقعة في مفتتح القصص ، فيكون عطف جملة الأمر المقدر على جملة قل الأنفال لله (الأنفال :١) ، والمناسبة هي أن كلا القولين فيه توقيفهم على خطأ رأيهم وأن ما كرهوه هو الخير لهم [١]

بينما يعود الطاهر بن عاشور ويرجح أن " الأحسن أن تكون وإذ يعدكم الله معطوفاً على كما أخرجك (الأنفال : ٥) عطف المُفرد فيكون المعطوف مشبها به التشبيه المفاد بالكاف والمعنى : كإخراجك الله من بيتك وكوقت يعدكم الله إحدى الطائفتين الآية واسم الزمان إذا أضيف إلى الجملة كانت الجملة في تأويل المفرد فتؤول بمصدر ، والتقدير : وقت وعد الله إحدى الطائفتين ، ف "إذ" اسم زمان منصرف مجرور بالعطف على مجرور كاف التشبيه [١] .

والتعبير بالمضارع " يعدكم " يوحى بتجدد وثبوت وعده – سبحانه – لهم ،ولا يخفى ما في ذلك من استحضار الصورة ليتيقنوا من وعد الله سبحانه وتعالى لهم .

قال الألوسي :

" وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها " [٢]

وقوله " إحدى الطائفتين " أسلوب كنائي عن أمرين لا ثالث لهما ، وهما إما الحصول على القافلة ، وإما النصر . والتأكيد بـ " أنها "جاء مطابقاً لمقتضى حالهم ، فهم في أمس الحاجة إلى التأكيد والطمأنينة، والتعبير بلام الملكية أفاد النصرة و الغلبة .

---

[١]ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ٢٦٩/٩ . وانظر الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف ٣٤٠/٢ .

[١]المصدر السابق ٢٦٩/٩.

[٢]الألوسي ، روح المعاني : ٩ /١٧١ .

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية في مقام أحداث الغزوة وبعض تفاصيلها

وذلك في قوله تعالى(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) "(الأنفال :الآية٧)

أي: يعدكم مصير إحدى الطائفتين لكم، أي كونها معطاة لكم، وهو إعطاء النصر والغلبة عليها بين قتل وأسر وغنيمة. واللام للملك وهو هنا ملك عرفي، كما يقولون كان يوم كذا لبني فلان على بني فلان، فيعرف أنه كان لهم فيه غلبة حرب وهي بالقتل والأسر والغنيمة " [1] .

غير ذات الشوكة استعارة عن الظفر بالعير :

---

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير : ٩ /٢٦٩ .

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ }(الأنفال :الآية٧)يعني : العير التي ليس فيها قتال والشَّوكةُ : السلاح كسِنان الرُّمح ، والنصل والسَّيف ، وأصلها من النَّبتِ الحديدِ الطرف ، ك : « شَوْكِ السَّعدان » ، يقال منه : رَجُلٌ شائِكٌ ، فالهمزة مِنْ « واوٍ » ، ك : قائم ، ويجوزُ قلبه بتأخير عينه بعد لامه ، فيقال : شاكٍ ، فيصير ك : غازٍ، ووزنه حينئذ فالٍ . قال زهيرٌ : [من بحر الطويل]

- لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لهُ لبدٌ أظفارهُ لَمْ تُقلَّمِ

ويُوصفُ السلاحُ : بالشَّاكي ، كما يوصف به الرَّجُل ، فيقال : رجلٌ شاكٌ ، وشاكٍ ، وسلاحٌ شاكٌ ، وشاكٍ [٢].

وقال ابن عاشور: "وتودون إما عطف على يعدكم أي إذ يقع الوعد من الله والود منكم، وإما في موضع الحال والواو واو الحال، أي يعدكم الله إحدى الطائفتين في حال ودكم لقاء الطائفة غير ذات الشوكة وهذا الود هو محل التشبيه الذي أفاده عطف وإذ يعدكم، مجرور الكاف في قوله:" كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ"[الأنفال: ٥] فهو مما شبه به حال سؤالهم عن الأنفال سؤالا مشوبا بكراهية صرف الأنفال عن السائلين عنها الرائمين أخذها.

و«الود» المحبة وذات الشوكة صاحبة الشوكة ووقع ذات صفة لمقدر تقديره الطائفة غير ذات الشوكة، أي الطائفة التي لا تستطيع القتال "[١].

والتعبير بالشوكة تعبير استعاري وقد " شاع استعاره الشوكة للبأس ، يقال : فلان ذو شوكة ، أي ذو بأس يُتقى كما يُستعار القرن للبأس في قولهم : أبدى قرنه ، والناب أيضاً

---

[٢]ابن عادل الحنبلي ،اللباب ١١٥/٨.

[١]ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ٩ /٢٦٩ ، ٢٧٠.

في قولهم : كشر عن نابه ، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس أي تودون الطائفة التي لا يخشى بأسها تكون لكم أي ملككم فتأخذونهم وقد أشارت الآية إلى ما في قصة بدر حين أخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم – المسلمين بانصراف عير قريش نحو الساحل وبمجيء نفيرهم إلى بدر، وأخبرهم أن الله وعدهم إحدى الطائفتين ، أي إما العير وإما النفير وعدا معلقا على اختيارهم إحداهما، ثم استشارهم في الأمر أيختارون اللحاق بالعير أم يقصدون نفير قريش، فقال الناس: إنما خرجنا لأجل العير، وراموا اللحاق بالعير واعتذروا بضعف استعدادهم وأنهم يخرجوا لمقاتلة جيش، وكانت العير لا تشتمل إلا على أربعين رجلا وكان النفير فيما قيل يشتمل على ألف رجل مسلح، فذلك معنى قوله تعالى: وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم أي تودون غنيمة بدون حرب، فلما لم يطمعوا بلقاء الجيش وراموا لقاء العير كانوا يودون أن تحصل لهم غنيمة العير ولعل الاستشارة كانت صورية، أمر الله بها نبيه لتثبيت المسلمين لئلا تهن قوتهم النفسية إن أعلموا بأنهم سيلقون ذات الشوكة"[1]

قال الألوسي:

"وذات الشوكة هي النفير ورئيسهم أبو جهل ، وغيرها العير ورئيسهم أبو سفيان ، والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير ، والشوكة في الأصل واحدة الشوك المعروف ثم استعيرت للشدة والحدة وتطلق على السلاح أيضاً؛ وفسرها بعضهم به هنا {وَيِ رِيدُ الله أَن يِ حِقَّ الحَقَّ } أي يظهر كونه حقاً { بكلماته } الموحى بها في هذه القصة أو أوامره للملائكة بالإمداد أو بما قضى من أسر الكفار وقتلهم وطرحهم في قليب بدر ، وقرئ { بكلماته } بالإفراد لجعل المتعدد

[1] المصدر السابق:٩ /٢٦٩ ، ٢٧٠.

كالشيء الواحد أو على أن المراد بها كلمة كن التي هي عند الكثير عبارة عن القضاء والتكوين {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين } أي آخرهم والمراد يهلكهم جملة من أصلهم لأنه لا يفني الآخر إلا بعد فناء الأول ، ومنه سمي الهلاك دباراً . والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عز وجل يريد معاليها وما رجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين ، وكأنه للإشارة إلى ذلك عبر أولاً بالودادة وثانياً بالإرادة " [٢].

الإرادة الإلهية فوق الأسباب :

قال تعالى﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٨)

قال ابن عاشور:

"والمراد من الإرادة هنا إرادة خاصة وهي المشيئة والتعلق التنجيزي للإرادة التي هي صفة الذات. فهذا كقوله: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[البقرة: ١٨٥] أي يسر بكم.

ومعنى يحق الحق: يثبت ما يسمى الحق وهو ضد الباطل يقال: حق الشيء، إذا ثبت قال تعالى: "أفمن حق عليه كلمة العذاب"[الزمر: ١٩].

والمراد بالحق. هنا: دين الحق وهو الإسلام، وقد أطلق عليه اسم الحق في مواضع كثيرة من القرآن كقوله: "حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ"[الزخرف:الآية٢٩].

وإحقاقه باستئصال معانديه، فأنتم تريدون نفعا قليلا عاجلا، وأراد الله نفعا عظيما في العاجل والآجل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

---

[٢] الألوسي ، روح المعاني : ٩ / ١٧١.

وملحق الجناس الاشتقاقي في قوله " ليحق الحق " وقوله " يبطل الباطل" :

وقد عرفه بعض أهل البلاغة هو ما إذا كان الحرفان اللذان وقع فيهما الإختلاف نوعاً في طرفي الجناس متباعدين في المخرج وسمي لاحقاً لأن أحد اللفظين ملحق بالآخر باعتبار معظم الحروف[١]

وفي قوله: ليحق الحق جناس الاشتقاق. وفيه دلالة على أن أصل مادة الحق هو فعل حق. وأن أصل مادة الباطل هي فعل بطل ، ونظيره ، وكذلك في قوله "

و يبطل الباطل."[١]

ولابن الأثير وقفة عند هذا التكرار حيث قال " هذا تكرير في اللفظ والمعنى وهو قوله (يحق الحق) و (وليحق الحق) إنما جيء به ههنا لاختلاف المراد وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض " [٢].

وفائدة قوله: ويبطل الباطل التصريح بأن الله لا يرضى بالباطل، فكان ذكر بعد قوله: ليحق الحق بمنزلة التوكيد لقوله ليحق الحق لأن ثبوت الشيء قد يؤكد بنفي ضده كقوله تعالى: "قد ضلوا وما كانوا مهتدين "[الأنعام: ١٤٠] .

---

[١]) رفعت اسماعيل السوداني : مباحث عربية في لغة القرآن ، كلية الدعوة الإسلامية طنطا –١٩٩٠م .

[١]ابن عاشور ، التحرير والتنوير: ٩ / ٢٧٠ ، ٢٧١.

[٢]ابن الأثير :المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد : ، المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥ م ، ١٤٧/٢.

ويجيء في قوله: ويبطل الباطل من معنى الكلام، ومن جناس الاشتقاق، ما جاء في قوله: أن يحق الحق ثم في مقابلة قوله: ليحق الحق- بقوله- ويبطل الباطل محسن الطباق [٣].

(ولو كره المجرمون) شرط اتصالي. ولو اتصالية تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على يريد الله، أو على ليحق الحق أي يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصد مراده ما للمعاندين من قوة بأن يكرهه المجرمون وهم المشركون.

والكراهة هنا كناية عن لوازمها وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فإن المشركين، بكثرة عددهم وعددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهة المجرمين، وأما مجرد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحق: لأنه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره[١]

قال تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال :١٧/١٨)

---

[٣]ابن عاشور ، التحرير والتنوير : ، ٩ / ٢٧٢

[١] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٩/٢٧٣،٢٧٢

بين الله تعالى أنه خالق الأنفال للعباد وأنه المحمود علي جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه [٢]

قال ابن عباس " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولُّوا مدبرين" وذلكم مبتدأ حذف خبره ، تقديره ذلكم الذي حدث حق والغرض منها توهين كيد الكافرين حتّى لا تقوم لهم قائمة [١]

وموقع الفاء من الإعراب في قوله { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ } جواب شرط مقدر أي إذا عرفتم قصة إمدادكم بالملائكة وإيقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر . والمقصود بقوله تعالى :{ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (الأنفال ١٧).أي فعل ذلك ليقهر الكافرين وينعم علي المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة لأن الله سميع لأقوالهم عليم بنّياتهم وأحوالهم .

---

[٢] محمد علي الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير –دار الجيل بيروت ط الأولى جـ ٢–

[١] محمد علي الصابوني ،صفوة التفاسير . دار القلم العربي جـ ١– ص ٤٩٧.

يقول الرازي ((سميع لكلامكم عليم بأحوال قلوبكم وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب ، لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور ، ويعلم أن الخالق – سبحانه وتعالى – مطلع علي كل ما في الضمائر والقلوب [٢]

ويرى ابن عاشور أن قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" تذليل للكلام وأنها هنا مفيدة للتعليل والربط أي فعل ذلك لأنه سميع العليم ، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم ، وعلم أنهم أحوج لعنايته ونصره فقبل دعاءهم ونصرهم [٣]

والمقصود بالبلاء الحسن في هذه الآية هو خوض المعركة وحسن أداء القتال والبلاء يكون في الخير و الشر مصداقا لقوله تعالى " وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً الأنبياء ٣٥) حين تحسن استخدام الخير فهذا بلاء ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله فهذا كله اختيار من الله عز وجل .

"ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ"(الأنفال ١٨) أي والذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق والغرض إضعاف و توهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة

والإشارة في ذلكم " إلى القتل والرمي، والكيد هو المكر، وفي الآية إشارة للمؤمنين بأن الله معهم وأن الكافرين سيهربون فلا مجال للخوف والهلع وتولية الأدبار .

تم تأتي الآية الكريمة في ختام هذه الوحدة القرآنية فتوجه الخطاب للكافرين الذين كانوا يبتهلون إلى الله بأن يجعل الدائرة تدور علي أضل الفريقين وأقطعهما .وذلك قبل غزوة

---

[٢]) الرازي -مفاتيح الغيب – دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠ ط الأولى جـ ٧/ص ٣٨١

[٣] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١٠٥/٦

بدر قال تعالى : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال الآية ١٩).

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن بعض كفار قريش وعلى رأسهم أبوجهل حين أرادوا السير لقتال المسلمين في بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا " اللهم أّينا كان أفجر وأقطع للرحم فأحنه الغداة، أي: فأهلكه اللهم أنصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر ، اللهم أنصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين ، وأكرم الفرقتين " فأنزل الله هذه الآية (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا)[1]

ومعنى الاستفتاح هو طلب النصرة والفتح على عدوه ، لأن الألف والسين والتاء تأتي بمعنى الطلب فنقول مثلا – استفهم – أي طلب الفهم (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) أي تطلبوا الفتح أي إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان في صالح المؤمنين والخطاب للمشركين في قوله تعالى(ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (الدخان الآية ٤٩.)

"وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ" أي تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته وعن الكفر بالله وبرسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم .

[1] ينظر: تفسير الفخر الرازي جـ ١٥ ص ١٤١ ، وينظر ابن كثير جـ ٢ ، ص ٢٩٦ ، والجامع الاحكام القران جـ ٧ ، ص ٣٨٦ .

لن تغني عنكم جماعتكم شيئا من عذاب الله في الدنيا فهما كثر الأعوان والأنصار "وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" بالنصر والعون والتأييد .

يقول الزمخشري " إن تستفتحوا " خطاب للمؤمنين "وانتهوا " خطاب للكافرين يعني وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خير لكم وأسلم وإن تعودوا لمحاربته نعد لنصرته عليكم.

المبحث الأول

الأسرار البلاغية في بيان مكر الكفار برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفهم من الوحي والرسالة.

قال تعالى

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال الآية ٣٠ .)

في كلام الله إيجار بالحذف ، حيث حذف قوله تعالى : واذكر نعمته عليك أو، واذكر وقت مكرهم بك ولا يخفي ما للحذف من فضل ومزية لذا نجد الإمام عبد القاهر الجرجاني

يقول عنه أنه " باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر "[1]

وهنا أيضا تعبير بالمضارع " يمكر" بدلا من الماضي " مكر" وفي ذلك استحضار للحالة التي دبروا فيها مكرهم هذا، والتقييد بالمضارع يدل على الاستمرار والتجدد .

والمكر هو التبييت بشيء خفي يضر بالخصم . والذي يمكر ويبيت شيئا خفيا بالنسبة لعدوه ، لا يملك قدرة على المواجهة ، فيبيت من ورائه ، ولو كانت عنده قدرة على المواجهة فلن يمكر ، لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف .

ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول : {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } (النساء:الاية ٧٦)
ثم نجده سبحانه وتعالى يقول : {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } (يوسف :٢٨)ولذلك نجد الشاعر

العربي يقول :
وضعيفة فإذا أصابت فرصة * قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لاتتاح له فرصة ثانية ، لذلك يندفع إلى قتل خصمه .

أما القوي فهو يثق في نفسه وقدراته ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه [1].

---

[1] الإمام عبدالقاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود أحمد شاكر : مطبعة المدني – ط ثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢ م ص١٢١.

[1] الشعراوي ، تفسير الشعراوي، جـ٨ ، ص٤٦٨٠ .

ولعل " أو " في قوله – سبحانه – لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } للتقسيم وهو لون بديعي ، والتقسيم هنا باعتبار اختلاف تلك الأمور الثلاثة فمعنى ليثبتوك : أي يحبسوك ، ثم إن لم يتم لهم ذلك ، فيقتلوك ، وإما يخرجوك من بلدك .والتقسيم محسن معنوي وهو يعطي الكلام جمالاً وهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكلٍ إليه على التعيين.

"﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ " (الأنفال الآيتان ٣٢/٣٣)

وهم إنما أرادوا إن كان القرآن حقاً ولا داعي لهم إلى نفي قوة حقّيته ولا نفي انحصار الحقّية فيه وإن كان ذلك لازماً لكونه حقاً لأنه إذا كان ما هم عليه باطلا فصح اعتبار انحصار الحقّية فيه انحصارا ضافيا ، إلا أنه لا داعي إليه لولا أنهم أرادوا حكاية الكلام الذي يبطلونه [١]

كما أن دعاءهم هذا بأن يمطر عليهم بحجارة من السماء ، أو يأتيهم عذاب أليم ، هذا الدعاء يعد كناية منهم عن كون القرآن ليس كما يوصف به ، للتلازم بين الدعاء على أنفسهم وبين الجزم بانتفاء ما جعلوه سبب الدعاء بحسب عرف كلامهم واعتقادهم [٢].

وقد يستشف هنا لون بديعي وهو ذكر العام بعد الخاص ، حيث ذكروا إسقاط الحجارة عليهم من السماء – وهو نوع من العذاب – ثم ذكروا عموم العذاب فقالوا " أو ائتنا بعذاب أليم " .

---

[١] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٣٣٢/٩، ٣٣٣

[٢] السابق :٣٣٣/٩

وقوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }(الأنفال الآية٣٣) يعد كناية عن استحقاقهم لذلك العذاب ، وفيه أيضا إعلام بكرامة رسوله- صلى الله عليه وسلم -عنده، لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سببا في تأخير العذاب عنهم ، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمدا- صلى الله عليه وسلم- فجعل وجوده في مكان مانعا من نزول العذاب على أهله ، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضي [١] .

كما أن " اللام" في قوله " ليعذبهم " لتأكيد النفي والدلالة علي أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي -عليه الصلاة والسلام- بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم في حكمه وقضائه[٤]

وأما قوله﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال الآية ٣٣)يعد جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد ، فبعد أن هدد المشركين بالعذاب ذكّرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربهم بأن يؤمنوا بأنه واحد ، ويصدقوا رسوله ، فهو وعد بأن التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب وتكون لهم أمنا وذلك هو المراد بالاستغفار ، إذ من البين أن ليس المراد ب يستغفرون أنهم يقولون : غفرانك اللهم ونحوه ، إذ لا عبرة بالاستغفار بالقول والعمل يخالفه فيكون قوله :{ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }تحريضا وذلك في الاستغفار وتلقينا للتوبة زيادة في الإعذار لهم على معنى قوله " مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا" (النساء : ١٤٧ .) جاء المسند إليه "هم" وخبره جملة فعلية يستغفرون فأكد الضمير مرة أخرى وتقوى لأجله الكلام.

---

(٣)ابن عاشور التحرير والتنوير ٣٣٤/٩

[٤] أبي السعود العمادي محمد بن مصطفى/ ارشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم ،.دار احياء التراث العربي. بيروت :١٩/٤

في الآية أمران :

الأمر الأول/ أن رحمة النّبي-صلّى الله عليه وسلم- امتّدت إلى أعدائه من المشركين بحيث إن الله تعالى هدّدهم بالعذاب ولكّنه لم ينزله عليهم مادام النّبي-صلّى الله عليه وسلم – فيهم "ففي" تفيد الظرفية وهذا تقييد على أن العذاب لا يحل عليهم ما دامت دعوته قائمة فيهم .

الأمر الثاني/ هو أن يدفع الله عنهم العذاب ماداموا في استغفار مستمر.

وفي قوله { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ }.لون بديعي أيضا هو المشاكلة حيث سمي جزاء مكرهم مكرا ، " والمشاكلة من المحسنات البديعية ومرجعها إلى الاستعارة وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستعارة ، وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه التشبيه فأغفلوا أن يسموها استعاره وسموها المشاكلة ، وإنما هي الإتيان بالاستعارة لداعي مشاكلة لفظ للفظ وقع معه فإن كان اللفظ المقصود مشاكلته مذكورا فهي المشاكلة ، ولنا أن نصفها بالمشاكلة التحقيقية كقول ابن الرقعمق :[1]

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

استعار الطبخ للخياطة لمشاكلة قوله نجد لك طبخة ، وإن كان اللفظ غير مذكور بل معلوم من السياق سميت مشاكلة تقديرية كقول أبي تمام [2]

من مبلغ أبناء يعرب كلها ... أني بنيت الجار قبل المنزل

استعار البناء للاصطفاء والاختيار لأنه شاكل به بناء المنزل المقدر في الكلام المعلوم من قوله قبل المنزل [3].

---

[1]هو أحمد بن محمد الانطاكي ويكني أبا حامد توفي سنة ٣٩٩ هـ وكني أبا الرقعمق (براء مفتوحة وقاف مفتوحة وعين ساكنة وميم مفتوحة اخره قاف) ولم أقف علي معناه وهو ليس بعربي ولعله لفظ هزلي وقبل هذا البيت قوله :

اخواننا فصدوا الصبوح بسحرة ..... فأتى رسولهم إلي خصيصا

[2]والبيت في ديوانه من قصيدة في مدح لأبي الوليد أحمد بن أبي داوود ، ص١١٨.

[3]ابن عاشور ، التحرير والتنوير : ١/٧٤٤، ٧٤٥

وقوله " والله خير الماكرين " تذييل جار مجرى المثل وهو إطناب، فهو بعد تأكده للمعاني السابقة في الآية الكريمة ، يعد جملة مفيدة لحكم مستقل عما قبلها جار مجرى المثل . وللتذييل في الكلام موقع جليل ومكان شريف ؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا[٤] .

وقال تعالى كاشفا عن موقف الكفار من الوحي والرسالة {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }(الأنفال الآية:٣١)

هذا القول مقالة المتصدين للطعن على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومحاجته ، والتشعيب عليه : منهم النضر بن الحارث ، وطعمية بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط

والتعبير بالجملة " قالوا " مع أن القائل واحد منهم هو اللعين النضر بن الحارث واسناده إلى الكل لأنه كان رئيسهم وقاضيهم الذي يقولون بقوله ويأخذون برأيه .

اللام في قوله " الحق " للعهد ، ومعنى العهد فيه أنه الحق الذي ادّعاه النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أنه كلام الله تعالى المنزل عليه .

هذا وقد ذهب الزمخشري إلى أن هذا القول تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق ، وقد رأى بعضهم هذا القول بأن اللام للجنس وأشار إلى أن الأولى حملها على العهد الخارجي على معنى الحق المعهود المنزل من عند الله تعالى هذا لا اساطير الأولين فالتركيب مفيد لتخصيص المسند عليه بالمسند على آكد وجه [١]

ومعنى قد سمعنا : قد فهمنا ما تحتوي عليه ، لو نشاء لقلنا مثلها وإنما اهتموا بالقصص ولم يتبينوا مغزاها ولا ما في القران من الآداب والحقائق ، فلذلك قال الله تعالى عنهم :

{ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ }(الانفال الآية٢١)

أي لا يفقهون ما سمعوا.

---

[٤] أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين –تحقيق الاستاذين/ علي محمد البجاوي ، ومحمد أبوالفصل ابراهيم : ط دار الفكر ص٤١٣.

[١] الألوسي ، روح المعاني ، ٦٨/٧ .

وتجد التشبيه مبنيا على جملة القصر في قوله :" إن هذا إلا أساطير الأولين " والمعنى أنهم أردوا ما هذا إلا كقصص الأولين وحكاياتهم التي سطروها وليس كلام الله تعالى ، كأنه بيان لوجه قدرتهم على قول مثله لو شاءوا .[٢]

ومما قاله عبد القاهر في قوله تعالى﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ إذا لم يكن مما يكبره السامع، وأراد أنهم أرادوا التقليل من شأن القرآن، وأنه يسهل عليهم قول مثله أي أنه ليس مما يكبره المخاطب، أي ليس كبيرًا على نفوسهم فجعلوه كذلك في نفس المخاطب . [٣]

ومن المواضع التي يظهر فيها موقف هؤلاء من الوحي والرسالة ما ورد في قوله تعالى { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الأنفال الآية٣٢ .)

أما قوله " من عندك " للتأكيد وحينئذ فالمعلق به كونه حقا بالوجه الذي يدعيه النبي(صلى عليه وسلم) لا الحق مطلقا لتجويزهم أن كونه مطابقا للواقع غير منزل " أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ".

وقولهم " فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم "

هذا الدعاء كناية منهم عن كون القرآن ليس كما يوصف به ، للتلازم بين الدعاء على أنفسهم وبين الجزم بانتفاء ما جعلوه سبب الدعاء بحسب عرف كلامهم واعتقادهم .[١]

---

[٢] ابن عاشور ، التحرير والتنوير:٣٢٩/٩

[٣١] عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص١٦٤ .

١ابن عاشور: التحرير والتنوير :٣٢٩/٩ .

وتجد التقييد بالجار والمجرور في قوله " من السماء " مع أن الإمطار لا يكون إلا منها – لإزالة وهم من يتوهم أن الإمطار مجار عن مطلق الرجم وأنه إنما ذكر لبيان أن الحجارة المرجوم بها في الكثرة مثل المطر، ويقال بأن الإمطار يأتي بمعنى العذاب.[٢]

وتأمل قولهم " إن كان هذا هو الحق ... الآية " حيث قيدوا الكلام بـ إن " الشرطية – مع أن الأصل في " إن " الدلالة على عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط ، ومن أجل ذلك استعملت غالبا في الحكم النادر لكونه غير مقطوع به .

ولذلك فتعليق الشرط بحرف إن الأصل فيها عدم اليقين بوقوع الشرط ، فهم غير جازمين بأن القران حق ومنزل من الله بل هم موقنون بأنه غير حق واليقين بأنه غير حق أخص من عدم اليقين بأنه حق . وضمير " هو" ضمير فصل فهو يقضي تقوي الخبر أي : إن كان هذا حقا ومن عندك بلا شك .

وتعريف المسند بلام الجنس يقضي الحصر فاجتمع في التركيب تقويّ وحصر وذلك تعبيرهم يحكون به أقوال القرآن المنوهة بصدقه كقوله تعالى :-(إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)(آل عمران الاية ٦٢).

{ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }(الأنفال الآية ٣٤) .

المعنى أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال ومناسبة الآية لسابقتها بعد أن ذكر في الآية السابقة أن المانع من تعذيبهم هو وجود الرسول بينهم ولاستغفاره ذكر الله في هذه الآية أن هؤلاء الكفار

[٢] برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الايات والسور:٣/٣٦٠

مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام.

يخبر الله تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لوجود الرسول بينهم ، ولذلك لما خرج الرسول(صلي الله عليه وسلم) من بلدهم أوقع الله بأسه بهم يوم بدر وموقع جملة ، "وهم يصدون " من الإعراب في محل نصب حال أي والحال أنهم يصدون ومفعول يصدون محذوف دل عليه السياق – تقديره الحجاج أو المسلمين.وفي هم يصدون ضميرين الأول هم والآخر واو الجماعة وفيه تقوي الحكم والتوكيد.

" وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الأنفال الآية ٣٤)

لما كان المشركون يدعون أنهم أولياء علي البيت الحرام ، وأفعالهم تخالف هذا الادعاء لما كانوا يصدون عن المسجد الحرام ، ويفتنونهم عن الدين فالولي الحقيقي لا يفعل ذلك ، بل المتقون هم فقط أولياؤه ، والكفار بجهلهم لا يعلمون هذا الحكم ، فكان مناسبا أن تختم الآية بقوله تعالى " ولكن أكثرهم لا يعلمون "

يقول الرازي "المقصود بيان أن من كانت هذه حالة لم يكن وليا للمسجد الحرام ،فهم إذن أهل لان يقتلوا بالسيف ويحاربوا، فقتلهم الله يوم بدر وأعز الإسلام بذلهم" [١]

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن معاذ ، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا "[٢] .

---

[١] الرازي –مفاتيح الغيب جـ١ – ص ١٤٣ .

[٢]مسند الإمام أحمد، دار الفكر العربي ، القاهرة ،د.ت ٣٤٠/٤ جـ ٤ .

وفي سنن أبي داوود (بسند صحيح عن أبي أمامة عن الرسول الله صلى عليه وسلم قال "إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام " [٣] .

والخلاصة أولياء هذا البيت هم أهل الصلاة عنده والطواف به ، أهل تعظيم حرمات الله وشعائر الدين الحق ، وليس أهل الشرك والجاهلية ، وأولياء الله تعالى الذين حضروا ذكر الله تعالى وهم اتباع هذا النبي الكريم وأهل سنته ومنهاجه .

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنفال الآية ٣٥) .

ومعنى المكاء الصفير من مكا يمكو إذا صفّر والمكاء كثير الصفير .

ومعنى التصدية هي التصفيق وهي أن يضرب بأحدى يديه على الأخرى فيخرج بينهما صوت .[٤]

والمعنى وما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند المسجد الحرام إلا تصفيرًا وتصفيقًا ، وكانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، أي أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق بغرض إشغال المسلمين عن صلاتهم.

قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون [١] .

وأما عن الجانب البلاغي فإنّ في قوله تعالى{فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}بعد قوله تعالى:{ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً } التفات من الغيبة إلى خطاب

---

[٣] أخرجه أبو داوود في السنن ورقمه / ٥١٧٩ .

[٤] شهاب الدين احمد بن محمد المصري – التبيان في تفسير غريب القران –دار الصحابة للتراث – ط الاولى ١٩٩٢ –جـ ١– ص ٢١٨

[١]محمد الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار القلم –ط١ /١٩٩٤ –ج١ –ص٥٠٣

الكفار تهديدا لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم ، والمقصود بالعذاب هنا هو عذاب الدنيا كيوم بدر . وتأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن في قوله تعالى:

{وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} حيث وضع المكاء والتصدية موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي

لا تفقه معنى العبادة ولا تعرف حرمة بيوت الله [٢] .وقدم المكاء على التصدية لأن صوته يزعج أكثر والله أعلم.

{(الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) الانفال٣٦ لقد احتجز طغاة مكة العير التي نجا بها أبوسفيان والتي كانت سببا لمعركة بدر ، لينفقوها على قتال المسلمين بأحد .

يروي ابن إسحاق بن حسن من حديث عاصم بن عمر بن قتادة أنهم قالوا (يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأرا [١].

فلقد كانت قريش تحترق غيظا كلما ذكرت مأساة بدر ، وتشتاط غيظا عند ذكرها لأبطالها الذين فقدتهم وصرعتهم أسياف المسلمين فكانت تخطط للثأر والانتقام في حرب شاملة ، يحرضها علي ذلك عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميه ، وأبو سفيان بن حرب ،

---

[٢]محمد الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار القلم –ط١/١٩٩٤ –ج١ ٥٠٥

[١] ينظر ابن هشام –السيرة – جـ ٣ / ص١

وعبد الله بن ربيعة وغيرهم ، وكان من أمرهم أن احتجزوا تلك العير للثأر لقتلاهم في قتال أحد .

فأجابت قريش لذلك فباعوها وكانت ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار فأشار القرآن في سورة الأنفال إلي ذلك في قوله تعالى {□ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا } أما الجانب البلاغي في معنى قوله تعالي :{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ ⑥ }ففيه من الإعجاز الغيبي ما فيه أي سيقع منهم هذا الإنفاق تم تكون عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم ، وتكرار الإنفاق في الآية إشعار بكمال سوء انفاقهم حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم في خير أو ما يشبه الخير وإنما أنفقوها في الشرور المحضة .

وتكرار حرف العطف "ثم" في الآية ليفيد التراخي والترتيب في الزمن لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد .

ويفيد أيضا الدلالة على البون الشاسع بين ما قصدوه بنفقتهم وبين ما آل ويئول إليه أمرهم . فهم قد قصدوا بنفقتهم الوقوف في وجه الحق والانتصار علي المؤمنين . ولكن هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى ، وغلبوا المرة بعد المرة ، وعاد المؤمنون الي مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها مهاجرين.

وفي الآية أيضًا تقديم المعمول الجار والمجرور على العامل في قوله تعالى:

{إِلَىجَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ }والأصل أن لا يتقدم العامل إلا لغرض بلاغي.[1]والغرض البلاغي للتقديم هو تخويفهم وتفظيع مآلهم وسوء مصيرهم والله أعلم.

" وخلاصة القول أن الآية عامة تحكي سلوك الطغاة في كل زمان ومكان في جمعهم لحرب الحق والإسلام ، لتكون تلك الأموال عليهم حسرة وندامة وخزيا في الدنيا والآخرة ، فان نور الله لا يمكن إطفاؤه والله غالب علي أمره ولو كره الكافرون" [2].

{ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }(الأنفال الآية ٣٧) . أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار .

قال ابن عباس : يميز أهل السعادة من أهل الشقاء والمراد بالخبيث والطيب هما الكافر والمؤمن أو أهل الحق وأهل الباطل [3]

والتعبير القرآني يجسّم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم وكأنما هو كومة من الأقذار يقذف في النار دون اهتمام ولا اعتبار .

وقوله تعالى " فيركمه" أي فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض يقال ركم الشيء يركمه إذا جمعه وألقى بعضه وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع .[1]

أي فيجعله كالركام متراكما بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ، فيقذف بهم في نار جهنم.

---

[1] شهاب الدين احمد بن محمد المصري – التبيان في تفسير غريب القران –دار الصحابة للتراث – ط الاولي ١٩٩٢ –جـ ١– ص ٢١٨

[2] مأمون حموش – التفسير المأمون جـ ٣/ ٣٧٠

[3] الصابوني – صفوة التفاسير جـ ١_ص ٥٠٤

[1] شهاب الدين أحمد بن محمد المصري – التبيان في تفسير غريب القران جـ ١ ص ٢١٨ .

وقيل : ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان على نصرة دينه ، فيركمه فيجله في جهنم في جملة ما يعذبون به ، وفي قوله تعالى " { فيرْكُمه ُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَه ُ فِيجَه َنَّم} استعارة مكنية حيث شبة الخبيث الذي يجمع فوق بعض بالقاذورات فذكر المشبه وحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته وهو الجمع .

تم ختم الآية بقوله تعالى " أولئك هم الخاسرون " فقدم الضمير في الآية لإفادة القصر والمبالغة في اتصافهم بالخسران وأفاد ثبات الحكم أي الخسران.((٢))

(٢) المصدر السابق ٢١٩/١

المبحث الثاني

الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن السلم ومحاولة خداع المشركين

لرسول الله – صلى الله عليه وسلم.

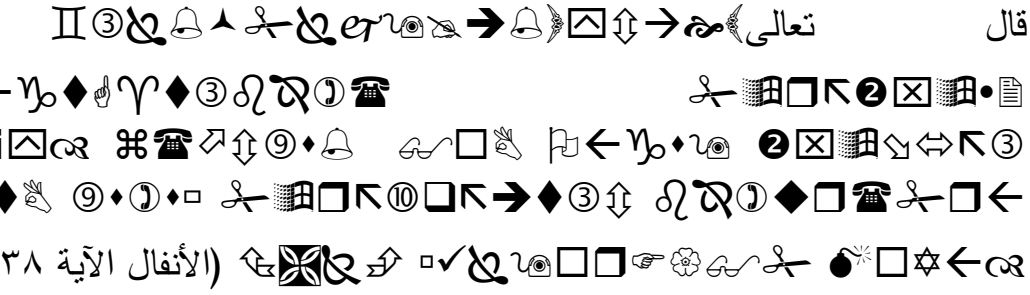

قال تعالى﴿ ♒︎→⇧⍓﴾🔔➔✉︎👁♑︎𝒆𝒓♋︎✂︎⅄🔔♋︎③♊︎
🗎•▦☒❷⇖❒▦✂︎ ☎︎☽♋︎♌︎③♦︎♈︎✌︎♦︎♑︎←❑✂︎
③⇖⬄⬂▦☒❷ ♋︎♦︎♑︎←🏳 👌☐✍︎ 🔔♦︎⑨⇧⬀☎︎⌘ ♓︎⍓■✂︎
←❒✂︎☎︎❒◆☽♋︎♌︎ ⇧③♦︎➔⇖❑⑩⇖❒▦✂︎ ▫︎♦︎☽♦︎⑨ 👌♦︎♌︎•💣
♓︎←✡︎☐💣 ✂︎✍︎🏵☞❒☐♋︎♋︎✓▫︎ ⬀♋︎🀫⬁ (الأنفال الآية ٣٨).

يقول الله تعالى لنبيه محمد– صلي الله عليه وسلم– ((قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)) أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة،يغفر لهم ما قد سلف أي كفرهم وخطاياهم [1] .

والمقصود أن الله تبارك وتعالى يعطى الفرصة للعبد ليتوب ويستعتب من إساءته ، ومن ذلك تشجيع الكفار على استئناف طاعة الله وحده لا شريك له ، وترك ما كانوا عليه من الكفر والخطايا والمكر بدينه وبالمؤمنين ، ولقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في عدة أحاديث منها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي وائل عن ابن مسعود

(١) ابن كثير تفسير القران العظيم – جـ٢ / ص ٢٩٣ .

رضي الله عنه قال (قال رجل يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال : من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر[٢] .

ومنها أيضا ما أخرجه الطبراني بسندٍ رجاله ثقات من حديث عمرو بن العاص (إن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها)[٣].

وقوله تعالى " وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين "

فالآية تجمع بين الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم الماضية لما طغت فدكها الله بالعذاب ، والخلاصة في المعنى أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر واسلموا غفر الله لهم ما سلف من الكفر والمعاصي، فإن عادوا إلى الكفر ثانية وإلى الإجرام والمكر فإن لهم بسالف الأمم التي دمّرالله عبرة وذكرى للذاكرين .

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿(الأنفال الآية ٣٩).

يقول الزمخشري : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة(إلى أن لا يوجد فيهم شرط قط) ويكون الدين كله لله (ويضمحل عنهم كل دين باطل ،ويبقى منهم دين الإسلام وحده) فإن انتهوا (عن الكفر وأسلموا) فان الله بما يعملون بصير(يثيبهم على توبتهم وإسلامهم)[١] .

وقيل في معنى قوله تعالى ، ويكون الدين كله لله ، أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام ، قال الألوسي "واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو رجوعهم عنها خشية القتل"[٢] .

---

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب استتابة المرتدين والعائدين وقتالهم ورقمه ٦٩٢١ .

[٣] مسند الامام احمد – ج ٤ ص/٢٠٥.

[١] الزمخشري – الكشاف ج٢/ ص ٢٠٩ .

[٢] الألوسي – روح المعاني ج٩ –ص٢٠٧ .

أخّر خبر إن في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقدّم الجار والمجرور "بما" على العامل والمعمول لغرض بلاغي هو الإختصاص.

ويمكن تحقيق كون الدين كله لله عن طريق أمرين أساسيين هما:

١- دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين فيخرجون من عبودية العبيد في كل صورها ويرجعون بعبوديتهم لله وحده .

٢- تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر لضمان المحافظة

على الهدف الأول السابق ليكون الدين لله وحده .

وقوله تعالى : " فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير" .

أي فإن انتهوا بقتالكم عمّا هم فيه من الكفر فكفوا عنكم ، وإن لم تعلموا بواطنهم فإن الله بما يعملون بصير .

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال الآية ٤٠) .

قال ابن كثير (فإن استمروا على محاربتكم اعلموا أن الله مولاكم نعم المولي ونعم النصير) سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير " [١]

فمن كان الله مولاه وناصره فقد كفاه كيد الأعداء وكان في أمن واستقرار ،وكان في الآخرة مع المتقين الأبرار .

[١] ابن كثير تفسير القرآن العظيم –٢/ ص٣٠٩ .

وقيل في تفسير هذه الآية أيضاً :وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان اعلموا يامعشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بنصرته وولايته ولا ينالوا بمعاداتهم لكم ،نعم المولى الله فإنه لا يضيع من تولاه ،ونعم النصير لكم فإنه لا يغلب من نصره الله.

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان من كل سلطان جاهلي ، ويرتقي بالناس ليكونوا عبيداً لله وحده .

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(الأنفال الآية ٦١) .

يقال : جنح له وإليه يجنح جنوحاً ، أي مال له وإليه ، فالجنوح : الميل وجنح رجل إلى الآخر : مال إليه ، ومنه جنحت السفينة ،أي مالت إلى أحد جانبيها ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير.[1]

والمعنى إنه إذا مالوا إلى السلم فمل إليهم ، والسلم المصالحة ولذلك أنثت .

فالمسلمون مأمورون بإعداد العدة وبذل ما في وسعهم لمواجهة عدوهم ،حتى يشعر العدو بأن المسلمين مستعدون لضربهم ،عند ذلك يلجأون إلى المسالمة والمصالحة ، فمتى وصل المسلمون إلى هذه المرحلة ومال الأعداء إلى السلم وطلبوا ذلك ، فعلي المسلمين أن يلبوا طلبهم ،وهم متسلحون بإيمانهم ، متوكلون على ربهم ،مفوضون أمرهم إليه .

[1] انظر ابن منظور -لسان العرب ج٢/ص٤٢٨ مادة جنح.

وعبر سبحانه عن جنوحهم إلى السلم وأكدت الجملة بـ (إن) الذي يعبر به عن الشيء المشكوك في وقوعه ، للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلا لاختيار المسالمة والمصالحة لذاتها ، وإنما جنحوا إليها لحاجة في نفوسهم ، فعلى المؤمنين أن يكونوا دائماً على حذر منهم وألا يأمنوا مكرهم[٢] .

وقد تكلم المفسرون حول هذه الآية ، هل المراد بها فئة خاصة أم أنها عامة؟ وهل هي منسوخة بآيات القتال أم ليست بمنسوخة ؟ وليس من طبيعة هذا البحث الخوض في مثل تلك الخلافات ، والذي يهمّنا أن هذه الآية محكمة على الصحيح ، وأنها عامة تنطبق على كل قوم يريدون الدخول في السلم ضمن ضوابط وشروط مقررة ومعروفة.

قال الزمخشري : والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا إلى الهدنة أبداً "[١] .

ويقول الإمام ابن كثير : يقول الله تعالى في هذا المعنى إذا خفت من قوم خيانة – وهي عامة – فانبذ إليهم عهدهم على سواء ،فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ، وان جنحوا ومالوا للسلم والمصالحة والمهادنة، فاجنح لها ، أي فمل إليها وأقبل منهم ذلك ، ولذلك لما طالب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط وأما الآيات التي فيها الأمر بقتالهم ، فهذا إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم ، كما دلت عليه هذه الآية ، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فلا منافاة ولانسخ ولا تخصيص ، والله اعلم "[٢]

([٢])محمد سيد الطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، مصر ١٣٩٩هـ، ص ١٨٧ .

[١] الزمخشري – الكشاف – ج٢/ ص ١٦٦

[٢] ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج٢ / ص ٣٢٢ بتصرف

ونختم القول في هذه الآية بما ورد فيها من تصوير فني في قوله تعالى وان (جنحوا للسلم فا جنح لها وتوكل على الله)

السلم هو الصلح ، وهو شيء معنوي ،ولكن التعبير القرآني يجسده كأنما هو شيء محسوس ، باستخدام الفعل جنح ومن ناحية أخرى فإن الفعل جنح يرسم بجرسه ومعناه وما ينشئه في الخيال معنى الميل والعطف على الصلح والسلام ، فهنا يبلغ التصوير والتجسيد منتهاه، ويتتّبع الخيال صورة الصلح والميل نحوه كأنه حاضر ماثل ، ولو حاولنا أن نستبدل بالفعل جنح فعلاً آخر يرادفه أو يقاربه في المعنى لاختفت تلك الصورة وماتت فيها الحركة والحياة ، ومن هنا يكمن السحر والإعجاز في كلام الله عزّ وجل ، فقد جاء اختيار الكلمة أو الفعل أو الحرف في موضع هو له لا يمكن تبديله أو تغييره، وكأنما وضعت الكلمة بميزان ، ونزلت في مكانها المخصص تنزيلاً[1].

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأنفال الآية ٦٢) .أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك وهم سيضمرون الغدر والخداع ، فان حسبك الله – أي فإن الله يكفيك وهو حسبك ، كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر.

قال الزمخشري : "لا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم ، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم". قال تعالى "وألّف بين قلوبهم" التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله– صلى الله عليه وسلم – من الآيات الباهرة ، لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلبان .

---

[1] محمود صالح ، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ج ١٠ /ص ٢٥٧– ٢٥٨

ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله– صلى الله عليه وسلم – واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث بينهم من التحاب والتواد، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما شاء ويصنع فيها ما أراد، وقيل هم الأوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم ، ولم يكف لبغضائهم أمد ومنتهى وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس ، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبليغ قدرته(١) .

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال الآية ٦٣) .

بينَّ الله كيفية تأييد الرسول بالمؤمنين عن طريق تأليف القلوب، فقد ذكَر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – نعمته عليه فقال : "إن الله قد جمع بين قلوب المؤمنين الأنصار على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً وبالتباعد قرباً فإن تأليف القلوب من أسباب النصر التي أيّد الله بها رسوله –صلى الله عليه وسلم– [١] " ، قال القرطبي : "وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي – صلى الله عليه وسلم– ومعجزاته ، لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عليها

وكانوا أشد خلق الله صحة فألف الله بينهم بالأيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين"

---

[١] الزمخشري – الكشاف ج ٢ –ص ٢٣٣ – ٢٣٤٣ .

والمقصود بمن ألف الله بين قلوبهم في الآية هم الأوس والخزرج فقد كان بينهم حروب وعصبية فألف الله بين قلوبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحمل على العموم أولى فكل الصحابة من جميع القبائل ألف بين قلوبهم .

قال ابن عباس قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر ، ولمي ُر مثل تقارب القلوب ، فقول الله تعالى " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم "، ولكن الله سبحانه وتعالى بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق فإنه المالك للقلوبي ُقلبها كيف يشاء.[1]

(١) الزمخشري – الكشاف ج ٢ –ص ٢٣٣ – ٢٣٤٣ .

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن الكفار ونقضهم للعهود وعدم توليهم وأهمية الإعداد العسكري لهم .

قال تعالى﴿ ♌♐➀ ☸• ➌ ✂✍♋◎⑨●❒◆✂✍☺ ↖♉✡⑨□
♦✂★◫♌☞▪✍✂ ✍⅄🔔♉⇦✖ ✍⊠⊞⊠❷↖❒✂
•▫•♑←✨⇧☎ • ③↖•⬀✌♉☪↖❒♌﴾♦ (الأنفال الآية ٥٥) .

أي شر من يدب على وجه الأرض ، في علم الله وحكمه ، هم الذين كفروا وأصروا على الكفر .

قال ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يحاربوه فنقضوا العهد ، فاليهود هذه طبيعتهم البارزة وصفتهم الخسيسة على مر العصور وهي عدم وفائهم بالعهود .

قال أبو حيان : نزلت في بني قريظة ، عاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يمالئوا عليه ، فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح ، وقالوا :- نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق ، إلى أن قال ابن عباس : شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين منهم الناكثون للعهود ، فأخبر تعالى أنهم جامعون لأنواع الشر[١] . فيها استعارة تصريحية لأنهم شبهوا بالدواب حتى كأنهم أصبحوا دوابًّا وهم شر الدواب .والاستعارة التصريحية هي التي يُصرح فيها بلفظ المشبه به[٢] .

---

[١] أبو حيان، البحر المحيط ج ٤ / ٥٠٨ وانظر: الزمخشري الكشاف ج٢/ ١٦٤

[٢] أحمد مصطفى المراغي ،علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان،ص٢٧.

كيف بالإنسان عندما يتصور نفسه وليس هناك فرق بينه وبين سائر الحيوانات التي على الأرض ؟ وقد ميزه الله بالعقل ، ولكنه عطل هذه النعمة وهبط إلى الحضيض فكان شر الدواب ، ولذلك وصفهم الله بأنهم شر الدواب ولم يقل شر الناس ، إشارة إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم في جنس غير جنس الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشدهم،وعبّر بالجملة الإسمية "فهم لا يؤمنون" للتوكيد وتقدم المسند إليه "هم" للأهمية.

قال تعالى﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾(الأنفال الآية ٥٦) .

عاهدت : المعاهدة ثابتة عبر عنها بالفعل الماضي ، لكنهم خالفوا ذلك ونقضوا فعبّر عن النقض بالمضارع لأنه أمر متجدد ومستمر،وعبّر عن العهد بالماضي لأنه من الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في حكم المحقق والملتزم به .

ثم تفيد الترتيب فإن ترتيب النقض على العهد هو ترتيب نتيجة على مقدمة ،كأنه قيل عاهدوا لينقضوا وتدل على التراخي ليكيدوا وهذه سمة اليهود إلى اليوم.

أي إن هؤلاء الذين كفروا فسدت فطرتهم وباتوا شر الدواب عند الله ينقضون عهدهم في كل مرة .

ثم انظر إلى براعة التركيب القرآني في عطفه "بثم " المفيدة للتراخي والترتيب للإيذان بالتعاون الشديد بين ما أخذ عليهم من عهود ، وبين ما تردوا فيه من نقض لها واستهانة بها .

ثم عبر بصيغة المضارع (ينقضون) المفيدة للحال والاستقبال للدلالة على تعدد النقض وتجدده واستحضار الصورة بدل الماضي أي عدل به عن الماضي إلى المضارع .

وأما عطف المضارع الذي يفيد المستقبل (ثم ينقضون) على الماضي (عاهدت) للدلالة على استمرار النقض منهم . ثم ختم الآية الكريمة بقوله تعالى(وهم لا يتقون) أي لا يتقون النقض ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه .

قال القرطبي : أي لا يخافون الانتقام و " من " في قول منهم للتبعيض ، لأن العهد إنما كان يجري مع أشرافهم ثم ينقضونه [١]. والمعني بهم بني قريظة وبني النضير ، في قول مجاهد وغيره ، فنقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ، فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق "[٢]قدم "هم" المسند على الخبر المنفي "لا يتقون" ليفيد التخصيص والتأكيد

والآية عامة في وصف كل من نقض العهد بعد توكيده ، وخان المواثيق بعد عقدها ، فهي تنطبق على اليهود ، والأعراب من لصوص الصحراء الذين كانوا يمكرون ويخونون العهود مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وكذلك على المنافقين وأمثالهم في كل زمان[٣].

قال تعالى : ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال ٥٧).

ومعنى تثقفنهم أي تقدر عليهم وتلقاهم في حالة ضعف فتغلب عليهم فتأسرهم وتقتل بعضهم ، وتتذر من خلفهم من التسميع والتنكيل والتفريق والقتل ، يقال : شردت بني فلان

---

[١]القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج٨ / ص٥٤

[٢] مأمون حموش ، التفسير المأمون ج ٣/ص٣٩٥

[٣]ا القرطبي – الجامع لأحكام القران – ج ٨/ص ٣٠ .

: قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها ، وكذا الواحد ، تقول : تركته شريداً عن وطنه وأهله [1] .

فإذا ما أدركت يا محمد – والخطاب له ولأمته – هؤلاء الكافرين اليهود وغيرهم الذين ينقضون عهودهم ، ففرق وشتت شملهم واجعلهم عبرة لغيرهم ممن تسوّل له نفسه المساس بهذا الدين ونقض العهود والمواثيق .

ومعنى قوله تعالى لعلهم يذكرون ، أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعني اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك .

قال تعالى} :وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾(الأنفال الآية٥٨) . قال النحاس " هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ، والمعنى : وإما تخافن من قوم – بينك وبينهم عهد – خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوامعك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك ليكون ذلك خيانة وغدراً[2] .

ففي قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة "استعارة مكنية تخييلية، فالخوف استعير للعلم ،وتخافن فعل مضارع يفيد الإستمرار مؤكد بالنون أي وإما تعلمن من قوم معاهدين لك نقض عهد فيما سيأتي بما يلوح لك منهم من الدلائل " فانبذ إليهم أي اطرح لهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر بأن تخيرهم خياراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ولا تناجزهم الحرب بغته .

---

[1] المصدر السابق– ج ٨/ ص ٣٠ .

[2] المصدر السابق – ج ٨/ ص ٣٢.

وفى الآية أيضاً فن الإشارة في قوله تعالى " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء " فإنها تشير بحركة واحدة إلى أشياء كثيرة لو عبر عنها بأسمائها احتاجت إلى عبارة طويلة وألفاظ كثيرة [١].

وخلاصة القول في هذه الآية أنه تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه .

قال أهل العلم :" آثار نقض العهد إذا ظهرت ، فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً أو ظهوراً مقطوعاً به، فإن كان الأول وجب الإعلام على ما هو مذكور في هذه الآية، وذلك لأن بني قريظة عاهدوا النبي (صلى الله عليه وسلم)ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فحصل رسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه ، فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عقودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب.

أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به ' فهاهنا لا حاجة إلى نبذ العهد ، كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأهل مكة فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة من ذمة النبي (صلى الله عليهم وسلم) وصل إليهم رسول الله بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة [٢].

وهكذا نرى تعاليم الإسلام وأخلاقه الفاضلة تفوق كل نظام على وجه الأرض، فتحتقر كل خوان أثيم ، وتتوعده بالخزي والعار وبالهلاك والدمار في الدنيا قبل الآخرة ، بهذا تسمو هذه التعاليم بالبشرية ، وتطلب منها أن تترفع عن كل ما من شأنه إصابة الناس بالخوف

---

[١] محمود صالح – الجدول في إعراب القران وصرفه وبيانه ج ١٠/ ص٢٥٠

[٢] الفخر الرازي – مفاتيح الغيب – ج ١٥– ص ١٨٣

والذعر والاضطراب ، ولهذا يطمئن الله تعالي نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المتمسكين بالتعاليم الإسلامية بأنه معهم وينتقم لهم من أعدائهم الكفار عاجلاً أو آجلا .

قال تعالى•﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾(الأنفال الآية ٥٩).

إن الكفار لا يفلتون من قبضة الله في كل زمان ومكان ، فالذين أفلتوا من القتل والأسر يوم بدر وظنوا أنهم قد نجوا ، وأنهم قد أعجزوا الله ، فالله تعالى لهم بالمرصاد ، وهم تحت تصرفه متى شاء أمكن المسلمين فقتلوهم وأسروهم ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فإن الله قد أعدّ لهم عذاباً أليماً خالدين فيه أبداً .

إن الله تعالى في هذه الآية يعد المسلمين بالنصر ويهون عليهم أمر الكفار والكفر ، فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق ، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم ، ولن يفلت الخائنون بخيانتهم ، والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة – متى أخلصوا النية فيها لله من أن يصيبهم أصحاب الوسائل الخبيثة ، فإنما هم منصورون بالله الذي يحققون سنته في الأرض، ويعلون كلمته في الناس وينطلقون باسمه ، ويجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحدة لا شريك له[١]

وفي الآية الكريمة نهي ، والنهي من الإنشاء ، وفيه معنى التهديد ، وقد اكتمل المعنى بإن المؤكدة التي أكدت قدرة الله على أنهم لا يعجزونه أبداً.

قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله

[١] سيد قطب – في ظلال القران – ج ٣/ ص ١٥٤٣

وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (الأنفال الآية ٦٠).

هذا خطاب تشجيع وتحريض،أي ترهيب وتحذير للأشقياء، قال صاحب البرهان: يراد به الأخذ بالحزم والتأني بالحرب والاستظهار عليها بالعدة، كقوله تعالى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" (البقرة ١٤٥) . وقوله تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"[١]، واستخدمت ما الموصولة بدل الذي لأنه يستوي فيها التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع كقوله تعالى "بما أنزل إليك"(البقرة الآية ٤)[٢].

في هذه الآية أمر الله تعالى عباده المؤمنين بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد وعلق ذلك بالاستطاعة لطفاً منه تعالى ، والأمر في الآية يقتضى العموم – أي عموم الكفار في أي زمان ومكان ، فكما أُمر المؤمنون أن يعدوا ما استطاعوا من أنواع القوة لقتال كفار قريش ومن والاهم ووقف معهم ، المؤمنون مأمورون بذلك لقتال أعداء الله المحاربين لدينه ، الصادين عن سبيله أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : واعدوا لهم ما استطعم من قوة ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي [٣].

ونستطيع أن نستنتج الهدف من إعداد القوة في الآتي :

١: تأمين المسلمين حريتهم في اختيارهم لهذه العقيدة فلا يفتنوا أو يصدوا عنها.

---

[١] الزركشي : البرهان في علوم القرآن، جـ٢ ، ص٢٤٩ .

[٢] المصدر السابق، جـ٤ ، ٣٩٨ .

[٣] حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه ورقمه "١٩١٧"

٢: إرهاب أعداء الدين ودب الرعب في قلوبهم فلا يفكرون في الاعتداء على المسلمين أو إيقاف المد الإسلامي .

وجاء قوله تعالى "ومن رباط الخيل " فيه التخصيص بعد التعميم للتنصيص على فضل رباط الخيل، إذ كانت الخيل هي أصل الحروب والخير معقود بنواصيها، وهذا أصل بلاغي يسمى الخاص بعد العام.

وقد حفلت السنه النبوية الشريفة بأحاديث كثيرة في هذا المعنى – منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة)[١] .

ومنها ، ما أخرجه ابن ماجة، في سننه بسند صحيح عن عروة البارقي (الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة)[٢] .

تم حض المولى تبارك وتعالى على النفقة في سبيل الله من جهاد وغيره يقول سيد قطب رحمه الله :"ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله "وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"(البقرة الآية٢٧١)، وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله من غاية أرضية ومن كل دافع شخصي ، ومن كل شعور قومي أو طبقي ليتمخض خالصا لله لتحقيق كلمة الله ، ابتغاء رضوان الله ، من ثم ينفي الإسلام من حسابه – منذ الوهلة الأولى – كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول ، وكل حرب تقوم على الاستغلال وفتح الأسواق ، وكل حرب تقوم للقهر والإذلال

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير ورقمه (٢٨٤٩– وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة ورقمه (١٨٧٣)

[٢] أخرجه ابن ماجه في سننه ورقمه (٢٣٠٥)

، وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم ، أو جنس على جنس ، أو طبقة على طبقة ، ويستبقى نوعاً واحداً من الحركة ، حركة الجهاد في سبيل الله ، والله سبحانه لا يريد تسويد جنس ، ولا وطن ، ولا قوم ، ولا طبقة ، ولا فرد ، ولا شعب ، إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته وهو غني عن العالمين وكون سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين [١]

وهذه هي الحكمة من اقتران الجهاد والإنفاق دائماً في سبيل الله وهكذا يتجرد الجهاد والنفقة في سبيله من كل غاية أرضية ومن كل دافع شخصي ليكون فقط في سبيل الله .

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}(الأنفال ٦٤) .

قال الفخر الرازي : "هذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال" [٢] .

ومعناها أنه لما وعده سبحانه بالنصر عند مخادعة الأعداء ، وعده بالنصر والظفر في هذه الآية مطلقاً .

وفي معنى العطف في قوله تعالى (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قولان للعلماء:-

الأول : التقدير : الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين ، فالكافي في حسبك في محل خفض – ومنه في موضع نصب والمعنى يكفيك الله ويكفي من اتبعك .

فلا يقال غالباً : حسبك وأخاك ، بل المعتاد أن يقال حسبك وحسب أخيك .

---

[١] سيد قطب ، في ظلال القران ، جـ ٣ / ١٥٤٤

[٢] ينظر: الفخر الرازي / مفاتح الغيب ج ١٥/ ١٩ / وانظر الزمخشري الكشاف جـ٢/ ص ٣٨٢

الثاني : أن يكون المعنى : كفاك الله وكفى أتباعك من المؤمنين ، وعلى كلا المعنيين ، فالنصر كله من عند الله ، ولكنه سبحانه جعل المؤمنين ينصرونه من باب اتخاذ الأسباب المألوفة المعتادة [٣] .

والمعنى : يأيها النبي ، هكذا يناديه سبحانه وتعالي بهذا النداء المحبب إلى نفسه ، وهي صفة النبوة تشريفاً وتكريماً له صلى الله عليه وسلم ، فلم يناده باسمه الصريح في كل القرآن ، بينما نادى كثيراً من أنبيائه عليهم السلام بأسمائهم الصريحة : آدم ونوح وإبراهيم وداود وموسي وعيسى... وغيرهم عليهم جميعاً السلام، مثل قوله تعالى "يا يحيى خذ الكتاب بقوة" (مريم الآية ١٢).

يأيها النبيء حسبك الله وكافيك ، وحافظك من كل سوء ومكروه ، وناصرك ومؤيدك أنت ومن اتبعك من المؤمنين ، عليكم أن تعملوا بالأسباب وتعدوا القوة حتى تكونوا أقوياء حسياً ومعنويا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال٧٣).

قال الزمخشري : "ظاهره إثبات الموالاة كقوله تعالى في المسلمين (أولئك بعضهم أولياء بعض) (الأنفال ٧٢) ، ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصادفهم وان كانوا أقارب وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً"[١]

---

[٣] المصدر ، السابق ج ١٥ ، ١٩١ بتصرف

[١] الزمخشري ،الكشاف –جـ٢ / ٣٩٠

قال ابن كثير: "ومعنى قوله تعالى ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾٧٣ أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو إلتباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل" [٢] .

والأولى أن يقال إن الآية عامة في الولاية والمواريث ، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، فلا نصرة ولا تأييد من المؤمنين للكفار ، بل كل النصرة والموالاة والتأييد والمحبة للمؤمنين ولا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المؤمن[٣].

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في عدة أحاديث منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أسامه بن زيد رضي الله عنهما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم)[٤]

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (لايتوارث أهل ملتين شتى)[١]

وقيل في معنى قوله تعالى : (تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة ،لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين.

---

[٢] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم جـ ٢ / ص ٣١٤

[٣] ينظر: مأمون حموش ، التفسير المأمون ج ٣/ ص٤١٧

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه ورقمه (٦٧٦٤- وأخرجه مسلم في صحيحه رقمه (١٦١٤)

[١] أخرجه الإمام احمد في مسنده جـ٢ / ص ١٧٨ .

المبحث الأول

الأسرار البلاغية في مقام أمر المسلمين بطاعة الله ورسوله والاستجابة لهما.

قال تعالى:

{ ④ سْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (الأنفال ، الآية ١)

استفتحت السورة بالجملة الخبرية يقول أهل التفسير إن أسباب نزول هذه الآية الكريمة اختلاف الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر حول الأنفال، قال عبادة بن الصامت ((نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلاقُنَا فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ

أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى الرَّسُولِ فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَوَاءٍ ، يَقُولُ : عَلَى السَّوَاءِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى اللَّهِ ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَإِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ))[1]

والسؤال كان عن حكم الأنفال ومصرفها وهو قول أكثر المفسرين وهو سؤال استخباري لا سؤال طلب[2] إنه سؤال استفتائي ولهذا عدي بكلمة (عن)، والأنفال جمع نفل، وهي الغنيمة وأصل النفل: الزيادة. وسميت الغنيمة به ، لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرها. أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد.[3]ويلحظ أن ابتداء السورة بقوله تعالى :{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } له موقع يرتبط مع بقية عناصر السورة برابط عضوي، فعنصر بيان أن الأنفال لله ورسوله يحكمان فيها ، تبعه الأمر بتقوى الله والأمر بطاعة الله ورسوله وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم ثم الحديث عن الخروج إلى غزوة بدر والاستعداد للحرب واجتماع الكلمة والنهي عن الاختلاف وغير ذلك مما يرتبط بالإعداد للحرب في بدر وما جرى فيها، فسورة الأنفال في أغلبها تتحدث عن الجهاد وفضله وغايته وإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين.وأورد السيوطي"اخرج البزاز عن بن عباس قال –ما رأيت قوماً خير من أصحاب محمد ،ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن "فهذه الآية من بين الآيات التي وردت فيها كلمة سؤال[4]

---

[1]أبو جعفر محمد جرير الطبري، جامعالبيانعنتأويلآيالقرآن، تحقيق محمود شاكر ، مكتبة أبن تيمية، ٣٧٠/١٣

وأنظر: تفسير الكشاف للزمخشري ٥٥٠/٢، فتحالقديرللشوكاني ٤٠٧/٢

[2]أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللبابفيعلومالكتاب ٤٠٧/٢ ، تحقيق عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩٨، ٤٤٥/٩ وأنظر تفسير البغوي ٨/٤

[3]الإمام الشوكاني، فتحالقديرالجامعبينفنيالروايةوالدراية، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ، دارالوفاء بيروت ١٩٩٢ ٤٠٦/٢. وينظر تفسير روح البيان، إسماعيل حقي، ٣٧١/٤

[4]الإمام جلال الدين السيوطي ،الإتقان في علوم القرآن ،تحقيق حامد أحمد الطاهر البسيوني ،دار الفجر للتراث ٢٠٠٦ج١ ص٥٨٥

والتعبير المضارع (يسألونك) يفيد استحضار الموقف وكأن السامع يعاينه ويشاهده، فضلاً عن دلالة الفعل عن التجدد والحركة والدوام والإيحاء بأنه قصدي إرادي من فعل الإنسان.

والسؤال يقتضي سائلاً، وقد أسند الفعل (يسألونك) إلى ضمير أي إلى من لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا، لأن السائل عن حكم الأنفال كان معلوماً متعيناً حال نزول الآية وهم قوم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ،كان لهم تعلق بالغنائم فلم يحتج في انصراف السؤال إليهم إلى سبق ذكرهم.[١]

ويقتضي السؤال أيضاً مسؤولاً هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأن يكون المسؤول محمداً عليه الصلاة والسلام فذلك تكريم له وتأكيد على مكانته السامية وعلى فضله، فقد اصطفاه الله تعالى وأعلى شأنه وعظم أمره وجعله إماماً للمرسلين وقدوة وسيداً للعالمين بلغ دينه لله تعالى أتم بلاغ وأحسنه وأكمله، إنه مرشدنا وسبيلنا إلى كل عمل فيه خير لنا في الدنيا والأخرة ففضله عظيم بعد فضل الله تعالى ومنته.

والمسؤول عنه أي موضوع السؤال هو (الأنفال) وجاء بصيغة التعريف لا التنكير، والتعريف ههنا يفيد الكمال أو الاستغراق.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم أمر الاختلاف في الأنفال فقال عز من قائل: {قُلْ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } أي حقها مختص بهما، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم في ذلك[٢] وهذا معني الجمع بين ذكر الله والرسول

---

[١] القاضي البيضاويحاشية شيخ زادة على تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، مكتبة الحقيقة، استانبول، تركيا ١٩٩٨ ٣٩٤/٢

[٢] الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤٠٧/٢

معاً[١] لذلك قيل أن اللام في قوله (لله) للاختصاص فهي بمنزلة (إلى)[٢] ويذكر المفسرون أن رد الحكم في الأنفال لله والرسول يدل على أن المقصود منه منع القوم من المخاصمة والمنازعة[٣] والأمر في (قل) موجه للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا أمر صريح فيه شدة وقوة تتناسب مع الموقف ومع حقيقة الآمر والمأمور، فمن مهام الرسول الكريم البيان والتفصيل، وقد تقدم لفظ الجلالة في قوله تعالى {قُلْ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } وحقق التقديم أهدافاً دلالية تتعلق بانسجام الخطاب في ذاته، كما نبه على أن ذكر الله تعالى مقدما في النص الكريم أفاد التعظيم، والمعنى تام بذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وقد وردت لفظة (الأنفال) في الجواب على السؤال صريحة ودون أن تجئ في صورة ضمير وهي مرتبطة أشد الارتباط بما بعدها، فالاهتمام بها قائم لأن ما بعدها مرتبط بحكم بارز وصريح وهو أن هذه الأنفال لا حكم فيها إلا لله والرسول، وهذا الحكم الثابت الذي لا يقبل التغيير يتناسب مع الصيغة الأسمية التي ورد بها لفظ (الأنفال) وهذا النسق بين وحدات الآية الكريمة، وهذا التأليف والترابط المحكم بين الألفاظ والمعاني إنما يرجع الفضل فيه والمزية إلى توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حد تعبير الإمام عبد القادر الجرجاني.[٤]

{ ☎اتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(الأنفال الآية ١)

---

[١] الإمام الزمخشري، الكشاف. تحقيق عادل عبد الجواد وآخرين، مكتبة العبيكان ٥٥٠/٢

[٢] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٥٢/٩

[٣] أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ٤٤٥/٩

[٤] أنظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٣٣

يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتقوا الله أي أن يخافوه وتكون تقواه بطاعته واجتناب معاصيه[١] وتفريع {فَاتَّقُوا اللَّهَ } على قوله تعالى {الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } لأن في ذلك رفعاً للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال وقدم الأمر بالتقوى لأنها جامع الطاعات[٢] فإن القلوب إذا كانت عامرة بالإيمان والتقوى لم يكن للشيطان منفذ، ولم يكن للخلاف موضع، فإن كان الأمر في القسمة لله ورسوله فلا ينبغي أن تتشغل النفوس بالمال وتقسيمه، فقسمة الله هي العدل والحق. [٣]

وما كان للمؤمنين أن يختلفوا حول الأنفال أو غيرها ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينهم، وهو الذي يحكم بقول المشرع الله سبحانه وتعالى، وهذه مسألة لا تقبل النظر أو الجدل أو الخلاف لقوله تعالى:{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ }(سورة الأحزاب، الآية ٣٦) .

وإن العدول في قوله{فَاتَّقُوا اللَّهَ } عن الضمير إلى لفظ الجلالة يعظم في نفوس المخاطبين أمره سبحانه، ويؤكد لهم ما يستتبع إطاعة الأمر، ويقطع الطريق على أي قول أو ظن قديري أن من الممكن أن تكون الأنفال لغير الله ورسوله.

ومما أمر الله به المؤمنين وقاية من النزاع وإبقاء للمودة إصلاح ذات البين في قوله: {وأصلحوا ذات بينكم} قال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الانفال[٤].

---

[١] أنظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ٣٨٣/١٣

[٢] أنظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٥٣،٢٥٢/٩

[٣] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت ٣٠٦٢/٦

[٤] الأمام الشوكاني، فتح القدير، ٤٠٦/٢

وجاء عطف الأمر بإصلاح ذات البين على الأمر بتقوى الله لأن هناك اختلافاً واختصاماً واقع في شأن الأنفال، لذلك كان النهي لهم عن هذا الاختلاف والتخاصم.

وقوله تعالى {وأصلحوا ذات بينكم} أي: أحوال بينكم بمعنى ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألْفة ومحبة واتفاق[١] وفي هذا دعوة صريحة إلى إصلاح ما بينكم من التشاجر والتقاطع ، فبذلك تجتمع الكلمة وتسود المودة ويزول التنازع، وهذا الإصلاح واجب شرعاً، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها، وبه تحفظ وحدتها. [٢]

وقوله تعالى { وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين } أي إن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه لا يتم إلا بالتزام الطاعة، فاحذروا الخروج والمخالفة، وأحتج من قال: ترك الطاعة يوجب زوال الإيمان بهذه الآية، لأن المعلق بكلمة (إن) على الشيء، عدم عند عدم الشيء[٣].

ويشير الإمام الشوكاني إلى أن طاعة الله ورسوله تتحقق بالتسليم لأمرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، أما قوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين} فإنه يعني امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله، وفيه من التهيج والإلهاب ما لا يخفى، مع كونهم في تلك الحال على الإيمان، فكأنه قال: إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله، لأن هذه الأمور الثلاثة التي هي: تقوى الله، واصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، لا يكمل الإيمان

---

[١]محمد جمال الدين القاسمي ، محاسن التأويل، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٧/ ص١٢١

[٢]محمد الأمين الأرمي الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، مراجعه د. هاشم مهدي، دار طوق النجاة، بيروت ، لبنان ط١ ٢٠٠١ ٣٣٣/١٠

[٣]أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ٤٤٥/٩

بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لا يمتثلها، فان من ليس بمتق، ليس بمطيع لله ورسوله وليس بمؤمن.[١]

يقول الشنقيطي إن طاعة الله (جلَّ وعلا) هي امتثال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك أن لا تختصموا في عرض من الدنيا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وطاعة رسوله أي اقبلوا وأرضوا بما يفعله بينكم من قسم في الغنائم.[٢] والأمر بالطاعة موجب مثل كل أمر في كتاب الله ، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين ومالك أمرهم، والرسول عليه السلام يطاع في أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوحيه فيه بالقول والفعل والحكم وهذه الطاعة لله والرسول تعبدية يتوقف عليها النجاة في الآخرة والفوز بثوابها.[٣]

وعندما قرن الله سبحانه وتعالى طاعته بطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) فإنه كرّم المطاع.

{إن كنتم مؤمنين} متعلق بالأوامر المحددة سابقاً، وهي أوامر لا يتحقق الإيمان إلا بها. و(إن) في النص الكريم من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، فعلماء الكوفة يقولون إن (إنْ) هنا بمعني (إذا) التعليلية، أي {اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} أي لأجل كونكم مؤمنين فاتقوا الله، لأن إيمانكم سبب يجعلكم على تقوى الله. والبصريون يقولون إن (إنْ) يراد بها التهييج والحض على الفعل، وأن ذلك أسلوب عربي معروف كما تقول للرجل الكريم: (إن كنت ابن الكرام فاقض حاجتي) وأنك تعلم أنه ابن الكرام، إلا أنك تهيجه بهذا الكلام وتستثيره وتحمله على الامتثال، والإستثارة بأداة الشرط في هذا المعنى

---

[١] الإمام الشوكاني ، فتح القدير، ٤٠٧/٢

[٢] الشنقيطي، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تعليق خالد بن عثمان ـ ، دار ابن الأرقم للنشر والتوزيع، السعودية ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ١٨١٧/٤

[٣] السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، مصر، ط ٢ ، ١٣٦٧هـ ، ٥٨٧/٩، ٥٨٨

أسلوب عربي معروف، فعلى هذا فالمراد بقوله: {إن كنتم مؤمنين} تهيجهم وتحرضهم إلى امتثال أمر الله (جلَّ وعلا).[1]

ويتجلى التأكيد على طاعة الله ورسوله كما تتجلى أهميتها من التكرار، حيث تكرر ذكر (الله ورسوله) ، فقد ورد في بداية الآية الكريمة عند ذكر ارتباط الحكم في الأنفال بالله ورسوله ثم ما يستوجب ذلك من طاعة لله والرسول في أمر التقسيم، وهذا التكرار جاء لغاية بلاغية وحقق قيمة جمالية وأعطى دلالة حقيقية، فكان في ذلك بيان لشدة استحقاق الطاعة وضرورة الالتزام بها، لأنها شرط من شروط الإيمان: {إن كنتم مؤمنين}

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال ، الآية ٢)

يقول ابن عطية في (المحرر الوجيز) في تفسير هذه الآية الكريمة:(إنما) لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحصر، وقوله هاهنا: (إنما المؤمنون) ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط أي الكاملون.[2]

والوجل: الخوف والفزع، والمراد أن حصول الخوف من الله تعالى، والفزع من ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان، وقد قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة الغنائم.[3]

---

[1] الشنقيطي، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١٨١٧/٤، ١٨١٨

[2] ابن عطية ،المحرر الوجيز، ٥٠٠/٢، ٥٠١

[3] الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤١٠/٢

وقد يشتكل اجتماع الوجل عند ذكر الله كما جاء في النص الكريم وحدوث الطمأنينة في الموقف نفسه كما ورد في قوله تعالى {أَلاَ بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(الرعد ، الآية ٢٨)، على اعتقاد أن الوجل خلاف الطمأنينة، وهذا غفلة عن المراد، لأن الطمأنينة تكون عن ثلج القلب وشرح الصدر بمعرفة التوحيد والعلم، وما يتبع ذلك من الدرجة الرفيعة والثواب الجزيل، والوجل إنما يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى ، وما يستحق به الوعيد بتوجيل القلوب كذلك[١] (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) أي: إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه (صلى الله عليه وسلم) زادتهم إيماناً، أي يقيناً في الإذعان وقوة في الإيمان، وسعة في العرفان، ونشاطاً في الأعمال، ويطلق الإيمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن تعين المراد.[٢]

وزيادة الإيمان على وجوه منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي (صلي الله عليه وسلم) فسمعه فآمن به، زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة الدلائل، ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص وتترتب بزيادة الأعمال الخيرة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات وهؤلاء يقولون يزيد وينقص.[٣]

والإيمان صفة جوهرية (إنما المؤمنون) تقوم عليها صفات أخرى، وقد ورد، هنا بالصيغة الأسمية، فهياسم فاعل للجمع أفاد الثبوت، أما الصفات الأخرى المرتبطة

---

[١] الشنقيطي ،العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١٨٢٠/٤ وأنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١٩٠/٢

[٢]السيد محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ٥٩٠/٩، ٥٩١

[٣]ابن عطية، المحرر الوجيز، ٥٠١/٢

بالإيمان وهي تؤكده فإنها وردت في الآية الكريمة بصيغ فعلية لتفيد التجدد (وجلت قلوبهم) ،

(تليت عليهم آياته) ، (على ربهم يتوكلون).

(وعلى ربهم يتوكلون) عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، وينتظر بعدما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره.(١)

وتركيب الجملة وما فيه من تقديم للمعمول على العامل (على ربهم يتوكلون) يفيد أنهم يتوكلون على ربهم وحده، لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم إلى سواه عز وجل، وعندما لا يرجو المؤمن غير الله فهو متوكل عليه، والتوكل أعلى مقامات التوحيد.(٢)

وفي قوله تعالى: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) مجاز عقلي، فالفعل مستند إلى غير الفاعل، لأن الآيات لا تزيد الإيمان، والمجاز هاهنا داخل في الإثبات.(٣)

وقد ذكر الزركشي في (البرهان) أن النص الكريم اشتمل على مجاز مركب طرفاه حقيقتان، فقد نسبت الزيادة التي هي فعل الله سبحانه وتعالى إلى الآيات لكونها سبباً فيها.(٤)

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } (الأنفال ، الآية ٣)

(١)ابن عطية، المحرر الوجيز، ٥٠١/٢

(٢)السيد محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، ٥٩٣/٩

(٣)فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق د. نصر الله أوغلي، دار صادر، بيروت، ط١ / ٢٠٠٤ ص ٨٩

(٤)الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢٥٦/٢

إقامة الصلاة أي الإتيان بها على الوجه الأكمل المطلوب، كالمحافظة على شروطها وأوقاتها، وصلاتها في الجماعات، وإعطائها حقها من السجود والركوع ونحو ذلك من الأركان.[١]

وذكر الصلاة، لأنها رأس الطاعات وعماد الدين، ومن أقامها أقام الدين، لذلك كان وصف المؤمنين بإقامة الصلاة ومدحهم بها هو حض عليها، وقد ابتدأ بذكر صفتهم بالاسم الموصول (الَّذين)تحفيزاً وتشجيعاً لهم، ولا سيما أنه جاء موصولاً بما يصدر عنهم من فعل على سبيل التوكيد، وللموصول إيحاء آخر وهو إرادة العموم لكل من كانت هذه صفته.

والتعبير بالمضارع في قوله تعالى: (يقيمون الصلاة) يفيد المداومة عليها في اوقاتها من غير تخلف، لأن التعبير بالمضارع يفيد التجدد المستمر الدائم والمحافظة عليها من غير انقطاع. [٢]

وجاءت إقامة الصلاة (يقيمون) بصيغة الجمع بالضمير، وجاءت (الصلاة) معرفة وليست نكره، وفي اظهار الضمير زيادة في تأكيد أهمية الصلاة وتعظيم مكانتها وشرف عملها وحسنه وقيمتها في رفع درجاتهم وكثرة حسناتهم.

(ومما رزقناهم ينفقون) قال جماعة من المفسرين هي الزكاة وتفسيرهم قائم لاقتران الكلام بإقامة الصلاة، ولعله لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصلات المستحقين.[٣]

وقد خص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه و (من) في

---

[١] الشنقيطي ،العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١٨٢١/٤

[٢]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير ٣٠٦٥/٦

[٣]ابن عطية ، المحرر الوجيز، ٥٠٢/٢

(مِمَّا) للتبعيض[1] ويدل على أن ما ينفق هو من رزق الله تعالى، وجاء تقديم الجار والمجرور (مما) لبيان الاختصاص أو القصر، أي إن الإنفاق مما أعطاه الله دون غيره، وفيه من الاهتمام بأنه من رزق الله الذي رزقه للأغنياء ليعطوا منه الفقراء، فالمال مال الله والجميع عباد الله فهو يأخذ من مال الله ويعطي عباد الله.[2]

ويتجلى التناسب بين هذه الآية التي توضح بعض صفات المؤمنين كإقامة الصلاة والانفاق وما قبلها، ذلك أن الخوف عند ذكر الله وزيادة الإيمان والخشية عند تلاوة القرآن الكريم مرتبط أشد الارتباط بالصلاة، فالصلاة لله والإنفاق للخلق ولكنه ارضاء لله والتزام بأوامره، فالذي يؤدي الصلاة الحقة يعظم أمر الله ولابد أن تترك أثرها في قلبه وعمله، لذلك تجده يراعي جانب الشفقة على خلق الله فيمد العون لعبادة وينفق من مال الله، وهذا هو محك العبادة الصادقة التي يستحق بها المؤمن رحمة الله ويستحق أن يكون مؤمناً حقاً.

قال تعالى{أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال ، الآية ٤)

يقول الإمام الشوكاني:(والإشارة بقوله (أُولَئِكَ) إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة وهو مبتدأ وخبره (هم المؤمنون) أي هؤلاء هم الكاملو الإيمان، البالغون أعلى درجاته وأقصي غاياته، (حقاً) مصدر مؤكد لمضمون جملة (هم المؤمنون) أي حق ذلك حقاً، أو صفة مصدر محذوف،أي هم المؤمنون إيماناً حقاً).[3] وفي قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) إشارة

---

[1] الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤١١/٢

[2] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٠٦٥/٦

[3] الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤١١/٢

بالبعيد عن القريب إشعاراً لعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف[١] وفيه تذكير وتوكيد وبيان علة للترغيب وتقوية للنفوس على الالتزام بالأحكام المذكورة وقد وردت صفة الإيمان (المؤمنون) بصيغة الاسم لمناسبتها لمقام الجزاء لا التكليف لأنها تفيد الدوام والثبات.

وفي النص الكريم ما يدل على القصر، أي أنهم وحدهم دون غيرهم المقصور عليهم وصف الإيمان، أي لا مؤمن على وجه الكمال غيرهم، وهذه شهادة من الله تعالى بانفرادهم بكمال الإيمان وكفى بالله شهيدا.

{ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال ، الآية ٤)

الدرجات: جمع درجة، قال بعض العلماء: هي درجات الجنات يوم القيامة وقيل إنها تعني المقامات[٢] قيل إنها الفضائل والرحمة أو الأعمال الرفيعة[٣] وهي مما أعد الله تعالى لمن كان جامعاً لصفات الإيمان الحق التي وردت في الآيات السابقة، وللصياغة القرآنية من تقديم وتأخير (لهم درجات) وإضافة (ربهم) وجمع (درجات) دلالات واضحة تبين جزاء هؤلاء المؤمنين والدرجات ومنازل الرفعة ومراتب الكرامة في الجنة، فدرجات الجنات ذات علو وتشريف كونها عند الرب سبحانه وتعالى، وذكره مضافاً إلى ضمير (هم) تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها، فإن الله فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة وعند الرب عز وجل.

وإن إضافة أسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص[٤]وقد تضمن قوله وتعالى: (لهم درجات عند ربهم) استعارة تصريحية، حيث استعار الدرجات

---

[١]محمد الأمين الأرمي الشافعي،تفسيرحدائق الروح والريحان، ٣٠٦٦/١٠

[٢] الشنقيطي ، العذب النمير، ٨٢١/٤

[٣]جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق د. عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات، القاهرة ٢٠٠٣ ، ٢١/٧

[٤]السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٥٩٥/٩

التي هي حقيقة في المحسوسات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة بجامع العلو في كل[1]فهي استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي وذلك لتوضيح الصورة.

وإن نظرة إجمالية عامة على الآيات ١-٤ تكشف عن تواشج الفنون البلاغية فيما بينها من نسيج الآيات على نحو متناغم فتحقق- كما لاحظنا – التكامل بين التكرار والتعريف والوصل ووضع الظاهر موضع الضمير ووضع الضمير موضع الظاهر.

وبلغت دقة إيثار التعبير القرآني للألفاظ عامة في الوفاء بالمعني والامتاع بالجمال على مستوى الأفعال في إيثار الصيغ الفعلية للإيحاء بالتجدد والاستمرار واستحضار الصورة، وحين استلزم الوصف بالاسمية عبر بالاسم للدلالة على ثبوت الصفة لهم وليتناسب مع استحقاقهم الصفة المناسبة.

وتحقق مثل ذلك على مستوى الحروف، وكانت ألفاظ الآيات قد امتازت بوفرة الدلالة التي أكثر المفسرون الحديث عنها. [2]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ }(الأنفال ، الآية ٢٠)

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته ولهذا قال: (لا تولوا عنه) أي لا تتركوا طاعته وامتثال أوامره، وترك زواجره ((وأنتم تسمعون))

---

[1]محمد الأمين الأرمي الشافعي،تفسيرحدائق الروح والريحان، ٣٦٤/١٠

[2]من الأمثلة على ذلك ما ورد من حديث عن بعض ألفاظ المجاز وصفات المؤمنين بإيحاءاتها ودلالاتها المختلفة وهو ما أشير إلى جانب منها في مواضعه من الصفحات السابقة

أي: لا تتركوا طاعته وامتثال أوامره، وترك زواجره ((وأنتم تسمعون)) أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه[١].

وقد افتتح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سُيلقى إلى المخاطبين، وهذا لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم ، فنزّل الحاضر منزلة البعيد ، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال .

والتعريف بالموصولية في قوله : { يا أيها الذين آمنوا } للتنبيه على أن الموصوفين بهذه الصفة من شأنهم أن يتقبلوا ما سيؤمرون به وخليق بالإيمان أن يكون باعثاً على طاعة الله ورسوله، والطاعة امتثال الأمر والنهي.[٢]

واستعمال الفعل (آمنوا) يفيد التجديد والحركة لأن المقام مقام تكليف كما نلحظ في الخطاب تحفيزاً على الفعل وتشريفاَ للفاعل، إذا قد خاطبهم بأشرف صيغة يحبونها وهي الإيمان، ومن هنا فقد حسن استعمال الفعل في هذا المقام، وبالتدقيق والتحميص في الخطاب نخلص إلى أن هذه الصيغة هي متضمنة لمعني الرحمة بالمخاطبين المكلفين، وهذا من الحكم إذ المقصد هو استجابة المخاطبين له.[٣]

وقد كثر الخطاب بـ((يَأَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا)) على المواجهة وفي جانب الكفار على الغيبة، إعراضاً عنهم، وعندما واجه بالخطاب المؤمنين فإن في ذلك تكريماً لهم. [٤]

ومن اللافت تكرار ((أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ)) إذ ذكرت هذه الطاعة وبهذه الصيغة في الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا بغرض تأكيد أهمية طاعة الله ورسوله وليعطف عليها

---

[١]ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفي السيد محمد وآخرين، مؤسسة قرطبة، بيروت ط١، ٢٠٠٠ ، ٤٥/٧

[٢]ابن عاشور: تفسيرالتحريروالتنوير ٣٠٣/٩

[٣]د. عمار ساسي ، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار المعارف، الجزائر، ٢٠٠٤، ٢٦/٢

[٤]الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢٣٠/٢

قوله تعالى: ((وَلاَ تَوَلَّوا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ)) أي لا تتولوا وتعرضوا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والحال أنكم تسمعون من كلام الله المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره، والمراد بالسماع هنا سماع التصديق والفهم والإذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا « سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ».والموصوفين بقوله عز وجل: { فَبَشِّرْ عِبادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}[1].

والضمير في (عنه) لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله، كقوله{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ } (التوبة، الآية ٦٢) ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد، فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ويجوز كما يري الإمام الزمخشري أن يرجع الضمير في (عنه) إلى الأمر بالطاعة، اي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله وأنتم تسمعونه، أو لا تتولوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا تخالفوه (وأنتم تسمعون) أي تصدقون، لأنكم مؤمنون[2].

وفي الآية الكريمة إشارة بيانية هي أن الله تعالى طالب بطاعة الله ورسوله، وعندما نهي عن الإعراض أعاد الضمير مفرداً فقال: ((ولا تولوا عنه)) النهي عن التولي، وهم في حال يسمعون فيها وإذا قال ((وأنتم تسمعون)) فهو دعوة إلى حسن الاستماع[3]، ولذا قال تعالى مؤكداً هذا المعنى:{ •وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) (سورة الأنفال ،الآية ٢١) أي لا تكونوا كالمشركين أو المنافقين أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فهؤلاء في مخالفتهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا

---

[1] السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦٢٦/٩

[2] الإمام الزمخشري، الكشاف، ٥٦٨/٢

[3] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٩٣/٦

يسمعون ولا ينطقون وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، وأنهم إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا ((قد سمعنا بآذاننا)) وهم لا يسمعون، إنهم لا يعتبرون ما يسمعون ولا ينتفعون بمواعظ القرآن الكريم.[1]

وقد اشتمل النص الكريم على طباق بين (سمعنا) و (لا يسمعون) لتأكيد حالة الزيف والكذب والمكابرة التي تحيط بهم.

والطباق هو الجمع بين معنيين متقابلين . وهو نوعان ، الأول طباق الإيجاب : وهو الجمع بين لفظين متقابلين ، والثاني طباق السلب : وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت واخر منفي ، أو أمر ونهي(٢) .

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} (الأنفال ،الآية ٢٢)

في هذه الآية الكريمة تعليل للأمر والنهي في الآية السابقة، والدواب جمع دابة وهي كل ما يدب على الأرض وقلَّما يستعمل هذا اللفظ في الإنسان وحده، وإنما يغلب على الحشرات ودواب الركوب، فإن كان قديماً فهو هنا يشعر بالاحتقار، والمعني أن شر ما يدب على الأرض في حكم الله الحق هو الأشرار من البشر (الصم) الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار والموعظة الحسنة فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته، (البكم) الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق (الذين لا يعقلون) أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا ، لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا، فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل االقرآن، ٤٥٨/١٣

وأنظر: الشوكاني ، فتح القدير، ٢/ ٤١١

[2] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ،ص٣٣٥

والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى، ولم يصفهم هنا بالعمي كما وصفهم في آية(الأعراف) وآيتي (البقرة) لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن الكريم.[1]

إن الله أعطي الإنسان أدوات الفهم ليحتل المكانة التي هيأها الله له في هذا العالم، وأنه إذا فقد ما خصه الله تعالى به من هذه النعم فقد نزل من درجات الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، وكان شر الدواب في هذا الكون، وفي النص الكريم استعارة تمثيلية، شبه فيها من لا يسمع الحق ولا يدركه ولا يبصر الآيات ولا يتأملها، ومن لا يفقه الحق ولا يدرك بالدابة، وجامع التشبيه هو عدم الفائدة من هذه الحواس، فهي إن كانت ذات فائدة في ذاتها فإنه لا يستنفع منها، ومن لا يستفيد من شيء فوجوده وعدمه سواء، وإن تشبيه الكافر بالدابة هو أصغر تشبيه له[2]وقد قال تعالى في تشبيهه:{ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}(البقرة ،الآية ١٧١) وكقوله تعالى {أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}(الأعراف ،الآية١٧٩).

{ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}(الأنفال ،الآية ٢٣). أي لو علم الله فيهم استعداداً للإيمان والهدى لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر، ولكنه علم أنه لا خير فيهم ، لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم، وفي الآية الكريمة نص واضح في أنه تعالى لم يسمعهم أي لم يوفقهم

---

[1] السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦٢٧/٩، ٦٢٨

وأنظر: اللباب في علوم الكتاب، ٤٨٧/٩

[2] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٩٥/٦

للسماع النافع لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق للنفس على الخير، فقد فقدوا ذلك بإفسادهم لفطرتهم. وإطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير[1].

وفي قوله تعالى{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} ترشيح للاستعارة وهي عند أهل البلاغة ما قرنت بما يلائم المستعار منه وهذه التي قوامها تشبيه حالهم في أنهم لا يسمعون سماع تدبر، ولا يبصرون بصر تأمل، بمن لا يسمعون ولا يبصرون، فهذا النص تقوية للتشبيه، لأنه قرينه تساعد المشبه به[2].و (لو) حرف امتناع لامتناع، أي امتنع إسماع الله تعالى لهم الكلام إسماع تدبر وإدارك لما فيه من تهديد وإنذار وتبشير، وامتنع ذلك لأنه لم يعلم خيراً في السماع، ولبيان أن من كتب الله تعالى شقوتهم لا جدوى معهم فقال تعالى:{ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} وهؤلاء حتى إن سمعوا وتفكروا حيناً لا تستمر بشاشة الإيمان في قلوبهم، ولذا قال تعالى في جواب الشرط: {لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}

ولإظهار صورة حال المعرضين شبهت حالهم وقد أعرضوا عن الحق وتركوه بحال الذين يديرون وجوهم وهم معرضون غير مقبلين[3]والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن القبول والإذعان والعمل بما جاءهم من الحق – كما هو مدلول الجملة الحالية – كراهة وعناداً للداعي إليه ولأهله، لا تولياً عارضاً مؤقتاً، وفرق عظيم بين التولي العارض بصارف مؤقت وتولى الإعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقداً تاماً.[4]

---

[1]السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار ، ٦٢٨/٩

[2]الشيخ أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٠٩٥/٦

[3]نفسه ، ٣٠٩٦/٦

[4]السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦٢٧/٩

ونلحظ ورود التكرار لغاية معنوية وبلاغية ذات دلالة في لفظتي (لأسمعهم) و(ولو أسمعهم) ، وهو أسلوب مرتبط بما جاء في الآية السابقة وبخاصة بوصف الكفار بالصم، وفي تكرار السمع تأكيد لأهميته في التدبر والتفكر وما سيترتب عليه من عظة واعتبار لم ينتفع به، ولا يخفى ما في السماع من دلالة على الطاعة والامتثال للحق، والحق يحتاج البقاء عليه إلى صبر ودوام وطول تدبر وتأمل، وقبل كل ذلك إلى نور الإيمان وقوة اليقين. كما آن ذكر السماع وتكراره بهذه الصورة في الآية الكريمة إشارة إلى أن هناك ارتباطاً ما بين عدم السماع والإعراض الذي هو سمة أساسية من سمات الكفر والكافرين.

وقد جاء الخطاب(أسمعهم) بلفظ الغيبة ليفيد الإعراض عنهم والذم لهم لأن إسماع الكافر غير إسماع المؤمن.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}(الأنفال ،الآية ٢٤).

النداء للذين آمنوا، والنداء للبعيد، لعموم النداء، ولأن أداة البعيد أنسب في هذا المقام. وقيل الاستجابة معناها الإجابة والسين والتاء للطلب[١] وهذه الآية تدل على أن الأمر يفيد الوجوب، لأنها تدل على انه لابد من الإجابة في كل ما دعاه الله إليه.[٢]والأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبقه من الأمر بالطاعة، وحدد الضمير حيث قال (إذا دعاكم) كما وحده في قوله (ولا تتولوا عنه)[٣] وتوحيد الضمير لأن استجابة رسول الله (صلى الله

[١]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٠٩٦/٦

[٢]أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ٤٨٩/٩

[٣]الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤٣٠/٢

عليه وسلم) كاستجابته، أنما يذكر أحدهما مع الأخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة الطاعة، والامتثال، وبالدعوة: البعث والتحريض.[١]

وقد اختلف المفسرون في قوله {إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُم} فقال بعضهم: معناها: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم للإيمان أو الإسلام أو للحق، أو لهذا القرآن ففيه الحياة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.[٢] وقال آخرون لعلوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم وقيل للشهادة ويقول الطبري أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه استجيبوا لله ورسوله بالطاعة إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق.[٣]وهذا يوافق قول الجمهور من المفسرين.

وقوله (لما يحييكم) يتضمن استعارةعلى أكثر الوجوه، فالحياة هنا مستعارة للعلم (علم الدين والشريعة) أو مستعارة للطاعة لما تضمنه القرآن الكريم من أوامر ونواه ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمديةوالحياة قد تستعار أيضاً للجهاد أو للشهادة وفق أقوال المفسرين.[٤]

أما قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) فإنه يدل على أن الأمور بيد الله تعالى، وأنه يصرف القلوب كما يشاء، فيهدي من يشاء هداه، ويضل من يريد اضلاله، وإنما عبر بالقلب لأن القلب محل العقل الذي به الإدراك، يحول بينه وبين قلبه فيصرف من هدى إلضلاله، ومن ضلالة إلى هدى، أو من أمن إلى خوف، ومن خوف

---

[١]الإمام الزمخشري، الكشاف، ٥٦٩/٢

[٢]أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ٤٦٣/١٣

[٣]المصدر السابق،٥٦٩/١٣

[٤]الإمام الشوكاني، فتح القدير، ٤٣٠/٢

إلى أمن[١] وقد يصح أن يراد من النص الكريم أن الله مالك كل شيء وأن شريعته فاصلة بين المرء وأهوائه، وأن الله تعالى قريب منه مجيب دعاءه إذا دعاه، وأنه قريب عليه يراه[٢]

ويقول الشيخ محمد الأمين الأرمي العلوي الشافعي إن في قوله تعالى((واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)) استعارة تصريحية تبعية لأنه كناية عن كونه أقرب للشخص من قلبه لذاته، فشبه القرب بالحيلولة، واستعير اسم المشبه به، وهو الحيلولة للمشبه وهو القرب، واشتق من الحيلولة (يحول) بمعني يقرب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.[٣]

والاستعارة التبعية هي التي تكون في الصفات المشتقة منها والحروف ، وذلك لأن الاستعارة تعتمد على التشبيه[٤] .

(وأنه إليه تحشرون) أي تجمعون، والتعبير ب(تحشرون) يفيد الجمع مهما يكن العدد، ومهما تتناثر الأجزاء أو تتباين.

وقدم الجار والمجرور للدلالة على أن الناس جميعاً يحشرون إليه وحده، وهو الذي انذر وبشر وأنه منفذ ما وعد، وما أوعد، فهذه الجملة السامية تربى مهابة اللقاء ، وتؤكده ، وإنه لقاء بالغفور الرحيم العزيز الحكيم.[٥]

---

[١]الشنقيطى ، العذب النمير من مجالس الشنقيطى في التفسير، ١٨٨٣/٤

[٢]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٩٨/٦

[٣]الشيخ محمد الأمين الأرمي العلوي الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان ٤٠٢/١٠

[٤]الخطيب القزويني، الإيضاح ،ص٢٩١.

[٥]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣٠٩٩/٦

{☎وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(الأنفال ،الآية ٢٥). معنى (اتقوا) اجعلوا بينكم وبين الفتن التي تعم أثارها وقاية، ويحذر الله عز وجل عباده المؤمنين من الوقوع في الفتن أو الذنوب والمعاصي والشهوات، مما يسوق إلى تفرق الكلمة، وضعف المودة، والتردي إلى مهاوي النزاع والخصام، الموجب لغضب الله، فتنزل عليهم عقوبة عامة، وعذاب شامل، يأخذ الصالح والطالح، لسكوت الصالحين عن إنكار ما وقع فيه المفسدون، فتحق عقوبة الله لهؤلاء وهؤلاء، فليحذر المؤمنون شر كل ذلك، وليتقوا ما استطاعوا الوقوع فيه، والتحذير يأتيهم مرة أخرى: (وأعلموا أن الله شديد العقاب) لا يطيقه أحد، ولا يقدر عليه مخلوق في الدنيا ولا في الآخرة. [١]

ونلحظ أن بين الفاصلة والآية الكريمة مناسبة تامة إذ ختمت بقوله تعالى: (واعلموا أن الله شديد العقاب)، وليعلم العباد أن عقوبة الله حين تنزل شديدة لم يذوقوها ولا يتوقعوها، وفي هذا زجر قوي لهم من التعرض لغضبه، بعدما ذاقوا حلاوة الإيمان ونعموا برضوانه والمراد هو الحث على لزوم الاستقامة، خوفاً من عقاب الله. [٢]

وقد وصلت الفاصلة (وأعلموا أن الله شديد العقاب) بالجملة قبلها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة) لاتفاقهما إنشاء لفظاً ومعنى، إذ الأولى تحذير من الوقوع في الفتنة والثانية تحذير من شدة العقاب. وقوله: (واعلموا) الأمر بالعلم للتنبيه، وفيه زيادة تهديد وتحذير. والخطورة أمر وقوع الفتنة وشدته وسوء عاقبته واستدعى أن يؤكد بأكثر من مؤكد واحد، لذلك أكدت الجملة بإن والاسمية حتى تحقق التنبيه والحذر الشديدين من الوقوع في الفتنة، وجاء المسند إليه معرفاً بالعلمية، لزيادة الترهيب

---

[١] الإمام الزمخشري، الكشاف، ١٥٣/٢ ، الطبري، جامع البيان ٢١٨/٩

وأسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسني والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال، عواطف خياط، رسالة ماجستير، ص ٤٠

[٢] أبو حيان، البحر المحيط، ٤٨٥/٤، والرازي: التفسير الكبير ١٥٠/٨ وأنظر: عواطف خياط: أسرار التناسب والنظم. (مرجع سابق) ص ٤١

والتخويف، لعهد الأذهان بجلال هذا الاسم، ورهبته وهيبته في النفوس، وله دلالة على كل صفات القوة والجبروت، لباقي أسمائه الحسني، لذا ناسب أن يسبق صفته (شديد العقاب).[١]وقد عرّف الفاصلة بعض أئمة القراءات ومنهم الزركشي صاحب البرهان في علوم القرآن بأنها: آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع.[٢] والسجع هو تواطؤ الفاصلتين من النثر علي حرف واحد وهذا معني قول السكاكي الاسجاع في النثر كالقوافي من الشعر .[٣]

الفرق بين الفاصلة القرانية والسجع والقافية :-

شكلت الفاصلة خلاف بين القدماء من حيث تعريفها وعلاقتها بفن السجع وقافية الشعر ،والفاصلة عند الزركشي والسيوطي هي اخر كلمة في الاية كقافية الشعر وقرينة السجع في النثر[٤] ، اما ابو عمرو الداني فيرى ان الفاصلة هي الكلمة الاخيرة من الجملة وهذا يعني عنده الكلام المنفصل قد يكون راس أي والذي عليه اغلب العلماء هو راي الزركشي والسيوطي لان ايقاع الفواصل يتحقق في رووس الاي ولا يتحقق في ا لجملة الواحدة في أي ولا يجوز تسمية الفاصلة القرانية قافية وكما يقول الزركشي : (لان الشرع لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه لانها فيه وخاصة به في الاصطلاح ،وكما يمتنع استعمال القافلة في القران الكريم لا تطلق الفاصلة في الشعر لانها صفة لكتاب الله فلا تتعده)[٥]. ولا يجوز تسمية الفاصلة سجعاً لأن السجع اصلة من سجع الطير فشرف الله القران الكريم لأن يستعار لشي فيه لفظ هو اصل في صوت الطائر ، ولاجل تشريفه عن

---

[١]الشيخ محمد الأمين الأرمي العلوي الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان ٤٠٢/١٠

[٢]الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٢٤٩/٢ .

[٣]) الخطيب القزويني ،اللايضاح ،ص٣٨٤

[٤] الزركشي البرهان ،ج٣،ص٥٣،

[٥] نفسه ،ص٥٨-٥٩

مشاركة غيرة من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام احاد الناس والأن القران من صفات الله فلايجوز وصفة بصفة لم يرد الاذن بها وان صح المعنى[1].

ومن العلماء الذين رفضوا وقوع السجع في القران الكريم الرماني الباقلاني ونحن نذهب مذهبهم لتشريف كلام الله حيث لا يجوز ان نطلق قافية ولا سجع علي الفاصلة القرانية وقد مثلت الفاصلة القرانية اعجازا من اعجازات القران الكريم .

وفي قوله تعالى(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الانفال(٢٥)

مجاز مرسل لما فيه من إطلاق المسبب الذي هو الفتن والمصائب، وإرادة السبب الذي هو الذنوب والمعاصي.[٢]

والنص الكريم (لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة) جواب لشرط محذوف أو في معني جواب الأمر، هو (اتقوا) ، والمعني: إن تتقوها لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، ودخلت نون التوكيد الثقيلة، لأن جواب الأمر في معني الأمر، ونون التوكيد تدخل الأمر فتؤكد جوابه، وذكرت الصلة في الموصول للإشارة إلى السبب وهو الظلم الذي يعم ، ولا يخص، وأظهر الظلم ليتبين أنه السبب، وأن السبب في عموم الفتن أو الذنوب أو الفساد في الأمة عمل الطاغين، وعدم الخصوصية أن ظلم الخاصة تكون نتيجته على الجميع، لأنه لا يوجد من ينهاهم، وقد أمروا بان ينهوهم، بل أن يحاجزوا بينهم وبين الظلم[٣]

---

[1] نفسه ،ص٥٤

[٢] عواطف خياط: أسرار التناسب والنظم. (مرجع سابق) ص ٤١

[٣] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٦/٣١٠٠

{ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(الأنفال ،الآية ٢٦).

(إذ أنتم) نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف، أي اذكروا وقت كونكم أقلة مستضعفين.[١]

يذكر الله سبحانه وتعالى ما كان بالمؤمنين من ضعف ليذكروا ما هم فيه من قوة وعزة ونعمة وليشكروه على ما أعطاهم وآتاهم[٢] وفعل الأمر (أذكروا) يشمل على دعوة للتذكر والتأمل في حالهم من قبل ومن بعد، ويلاحظ إيثار الصيغ الفعلية في عرض أحوال المسلمين في حالتين مختلفتين، حالة الذلة (الاستضعاف والخوف وتخطف الناس لهم) وحالة العزة (أواكم أيدكم، رزقكم وتشكرون) وفي ذلك دلالة على التحول والتغيير الذي تناسبه الأفعال أكثر مما تناسبه الأسماء التي تفيد الثبوت والدوام.

وتمتاز ألفاظ الآية الكريمة بوفرة الدلالة من مثل (أواكم أيدكم، رزقكم) فالإيواء والتأييد من الله سبحانه وتعالى تعني المدد والقوة والعناية والرعاية، ولذلك جاء (تشكرون) نتيجة لهذه النعم المتعددة الي تستحق الشكر والاعتراف بفضل الله عليهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}(الأنفال ،الآية ٢٧).

قيل في سبب نزول هذا النداء بالنهي عن الخيانتين هنا من حديث جابر أن أبا سفيان خرج من مكة فاعلم الله رسوله بمكانه، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان:

[١]الإمام الزمخشري، الكشاف، ٢٠٢/٢

[٢]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣١٠٣/٦

إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله (لا تخونوا الله ورسوله) والمراد أن فيها تعريضاً بهذا الفعل وقيل إنها نزلت في أبي لبابة، فإنه كان حليفاً لبني قريضة من اليهود[١].

والمعنى: لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه، ولا تخونوا الرسول بأن لا تستنوا به، (ولا تخونوا أماناتكم) أي لا تحفظوها وأنتم تعلمون أنكم تخونون، أي أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو، وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن.[٢]

وفي النص الكريم يحذر الله من أسباب الفساد والخيانة فهي أساس الفساد وأهم مظهر من مظاهره، وقد دل على ذلك النهي (لا تخونوا)، فالنهي له غرض بلاغي واضح هو التحذير من مغبة الوقوع في هذا العمل. وأنتم تعلمون /فيه تأكيد تقديم المسند إليه لأن الإسناد تم مرتين ، وهذا ما يسمى بالعدول أو الخروج .

ولم يأت النهي عن خيانة الله وحده بل كان نهياً عن خيانة الله والرسول معاً ، فهي خيانة واحدة، وقد جاء هذا الارتباط الوثيق لتأكيد حقيقة أن خيانة الله ورسوله هي خيانة للدين والأمانة والحق والعباد وأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، ولبيان أن نصرة الرسول نصرة لله، ومحبة الرسول محبة لله.

ولا يخفى ما بين هذه النداءات الإلهية للمؤمنين بالطاعة والنهي عن الخيانة من تناسب وتكامل مع ما قبلها وما بعدها فعدم الخيانة والالتزام بالشرع وعدم تعدي الحدود ورفض انتهاك المحارم التي بينها الله تعالى في كتابه كل ذلك يمثل صورة من صور الإيمان الحق وأداء الأمانة على وجهها الصحيح.

---

[١] الإمام الزمخشري، الكشاف، ٢٠٢/٢ وأنظر: تفسير المنار السيد محمد رشيد رضا ٦٤١/٩

[٢] الإمام الزمخشري، الكشاف ٢٠٢/٢

{ ☎ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }(الأنفال ،الآية ٢٨).

(واعلموا) هنا أمر من الله عز وجل لعباده بالعلم بان ما بين أيديهم من أموال واولاد فتنه ومحنة يختبرهم بها، وفي هذا الأمر تحذير من هذه الفتنة التي تشغلهم وتصرفهم عن القربات، والسبق إلى الطاعات، فإن لم ينتبهوا إلى تزين الشيطان لهم بالتلهي بينهما والوقوع في شراكهما، وإلا أفضت بهم إلى خسارة الدنيا والآخرة، لذا وعد بالجزاء بالآجر العظيم لمن سلم نفسه ودينه من شرهما، وقام بحق أمانتهما كما يحب ويرضى، واتقى الله في حدوده فيهما. [١]

وقد قدم المال على الولد، لأن المال في أظهر أحواله متعة خالصة، والولد متعة وتكليف، وما لا تكليف فيه يكون أو ضح وأظهر استمتاعاً.[٢]

يقول الزركشي في البرهان: (قدم الأموال من باب تقديم السبب، فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته، فهو سبب التناسل، ولأن المال سبب للتنعيم بالولد وفقده سبب لشقائه)[٣]

(إنما أموالكم ...) فيها قصر الأموال والأولاد عن الفتنة، ومن ناحيتها تجد الخيانة مسرب الشيطان إلى النفوس.

وإذا قاومنا فتنة المال والولد فإن الله عنده الآجر العظيم، وقد أكد الله تعالى الأجر الذي يتكافأ مع مقاومة الخيانة بسبب متعة المال والولد، أولاً: بالتعبير بالجملة الأسمية،

[١]نفسه .، ٢٠٢/٢

[٢]الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣١٠٧/٦

[٣]الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢٣٠/٢

وثانياً: بأن، وثالثاً: بتنكير أجر، ورابعاً: بوصفه بأنه عظيم وذلك لتحصين النفس بهذا الأجر.[1]

وصلت الفاصلة (وأن الله عنده أجر عظيم) بالآية قبلها (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لجامع التنبيه إلى فعل الأمر بالعلم في بدئها. وذكر المسند إليه معرفا بالعلمية (الله) لمناسبة الوعد بالجزاء الحميد، إذ لفظ الجلالة (الله) له من معاني الجلال والقدرة والرحمة ما يتناسب الوعد إن وفى العبد بالعهد.

وجاء المسند (أجر) نكرة، وهي للتأكيد وهي أيضاُ للتكثير والتعظيم، يتشوق العباد إلى كثرة صنوفه وأشكاله، وتتسع أفكارهم للتأمل في سعته وعظمته.

ولتقدم الظرف على المسند، إفادة معنى العندية والقرب من الله تعالى، فمن تمام النعيم الذي أعطاهم أن يجعله في قربه ورحابه.

وجاءت الجملة اسمية لدوام ثبوت أجر الله للمجاهدين المخلصين، الذين آثروا الله ومثوبته على علائق الدنيا الفانية، وقيد المسند (أجر) بالنعت (عظيم) لزيادة تقريبه إلى الأذهان.[2]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}(الأنفال ،الآية ٢٩).

---

[1] الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٣١٠٨/٦

[2] عواطف خياط: أسرار التناسب والنظم.(مرجع سابق) ص ٤٤،٤٥

الفرقان هنا قيل عند بعض المفسرين إنه النصر لأنه يفرق بين الحق والباطل، وقيل عند آخرين إنه البيان والظهور أي يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم بين الناس، وقيل أنه الفجر أو المخرج من الشبهات والتوفيق والشرح للصدور أو الفضل والمزية.[1]

والنص الكريم تضمن أسلوب شرط ، فقد وعد الله الكريم عباده المؤمنين، إن لزموا تقواه، وعمروا قلوبهم بطاعته، واعرضوا عن معصيته ، أن يهديهم إلى نور يشرح به صدورهم وينصرهم على أعدائهم وينجيهم من عذاب الآخرة، ويهديهم إلى جنات النعيم.

وهناك وصل بين الفاصلة (والله ذو الفضل العظيم) بالآية التي قبلها لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى، فالهدى والفرقان وتكفير السيئات، كلها من أجزاء الفضل العظيم، وهذا الوصل جعل لها انسجاما وانسياقا بديعين مع مقطعي الآية قبلها، وخلت من المؤكدات، لأنهم مصدقو وعد ربهم، وجاء لفظ الجلالة (الله) مسنداً إليه بلفظه، علماً دون الضمير لتزداد القلوب تعلقاً بربها، وأتي المسند (ذو الفضل العظيم) مقيداً بالنعت، ليزداد الوصف وضوحاً وقرباً للأذهان، وزاد فضله فضلاً أن جعله عظيماً كثرة وسعة، جاء الفضل ووصفه معرفاً بال التعريف التي تكون للجنس ليعلم خلقه أن أبواب فضله لا تحيطها عقولهم، وتكون للاستغراق ليعلموا أن فضله لا حد له، وجاءت الجملة اسمية ليكون لهذه الصفة الجليلة من الدوام والاستمرار ما يجعل عباد الله أكثر صلة وارتباطاً بربهم وخالقهم.[2]

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ }(الأنفال ،الآية ٥٠).

---

[1] الإمام الزمخشري، الكشاف، ٢/٢٠٤

[2] عواطف خياط: أسرار التناسب والنظم.(مرجع سابق) ص ٤٧،٤٨

يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم): ولو تعاين يا محمد حين يتوفى الملائكة أرواح الكفار فنْتزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأدبار، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم.[١]

يقول الزمخشري: إن (لو) ترد المضارع إلى معني الماضي، والمعنى لو عاينت وشاهدت، وجواب (لو) محذوف:أي لرأيت أمراً فظيعاً منكراً.[٢]

ويقول ابن عطية الأندلسي: ((هذه الآية تتضمن التعجيب مما حل بالكفار يوم بدر، وفي ذلك وعيد لما بقي منهم وحذف جواب (لو) إبهام بليغ))[٣]

((يضربون وجوههم وأدبارهم)) وهذا تصوير لحال ذلهم الذي يقابل اغترارهم واستكبارهم عن الحق. وكان التعبير بالمضارع لقصور الأمر حاضراً مرئياً مهيئاً يتصور ما يكون ويراه كأنه حاضر، والتعبير بالذين كفروا لبيان أن السبب في هذه الشدة التي يكونون عليها هو كفرهم، وهو مقابل لطغيانهم وتمردهم وعنادهم للحق في الدنيا، فإنه بسبب ذلك الطغيان يكون الإذلال والخسران والهوان.[٤]

((وذوقوا عذاب الحريق)) الجملة، معطوفة على (يضربون) ،والذوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الضرب والعذاب.[٥]فيها مجاز بالاستعارة.

---

[١]الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ، ١٥/١٤

[٢]الكشاف، الزمخشري، ٢١٧/٢

[٣] ابن عطية ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢/ ٥٣٩

[٤]محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير، الشيخ ، ٣٠٥٨/٦

[٥] الإمام الشوكاني ،الفتح القدير، ، ٤٥٦/٢

وقوله ((وذوقوا عذاب الحريق)) قيل كانوا يقولون للكفار ذوقوا عذاب الحريق حينئذ هذا اللفظ محذوف يقولون اختصاراً، و (الحريق) فعيل من الحرق. [١]

وقيل كان مع الملائكة مقامع من حديد، يضربون بها الكفار ، فتلتهب النار في جراحاتهم، فذلك قوله ((وذوقوا عذاب الحريق)) الذي يشتمل على أمر والنص لا يخلو من تهكم بهم، لأنهم فسقوا وذاقوا من الهوى ما ذاقوا، فكأنه يقول لهم: كما ذقتم المتع والشهوات فذقوا الحريق، وكأنه يبشرهم به.[٢]

وقد حفلت الآية الكريمة بصور بلاغية ذات قيمة جمالية مثل: ((يضربون وجوههم وأدبارهم)): مجاز مرسل، لأنه كناية عن ضرب أجسادهم، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل. وعلاقة المجاز الجزئية.

((وذوقوا عذاب الحريق)): استعارة تصريحية، لأن الذوق حقيقة في المطعومات،فشبه مباشرة العذاب بذوق الطعام بجامع الوصول إلى المقصود في كلٍ.[٣]

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}(الأنفال ،الآية ٥١).

أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب. (٤)

{ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً تقريعاً من الله عز وجل للكافرين حيهم وميتهم.[٥]

---

[١]ابن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز، ، ٥٤٠/٢

[٢]الشيخ محمد ابو زهرة ، زهرة التفاسير، ، ٣٠٥٨/٦

[٣]محمد الأمين العلوي الشافعي ، تفسير حدائق الروح والريحان، ، ٨٣/١١

[٤]الإمام الشوكاني ، الفتح القدير، ، ٤٥٦/٢

[٥]ابن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز، ، ٥٤٠/٢

وقد بين الله سبحانه وتعالى عذابه مربوطاً بسببه، (ذلك) إشارة إلى ما ينزل الله بالذين كفروا من العذاب الشديد الأليم، والباء للسببية، والمعنى أن العذاب الشديد بسبب ما قدموا من إيذاء للمؤمنين وجحود بالآيات وتكذيب لكتاب الله ورسله.

((بما قدمت أيديهم)) الباء حرف جر له معانٍ كثيرة منها التبعيض والسببية وغيرها وهنا معناها تعبير عن ذنوبهم التي تضافرت وتكاثرت، فالأيدي بها البطش الظاهر، وأن التعبير عن الكل باسم الجزء مجاز مرسل مشهور.[١]

والمعنى: بما قدمت أنفسكم، فاليد هنا عبارة عن القدرة، وحسن هذا المجاز كون اليد آلة العمل أو الفعل والقدرة هي المؤثرة، فحسن جعل اليد كناية عن القدرة.[٢]وهي كناية عن صفة.

((وأن الله ليس بظلام للعبيد)) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله[٣] قال الزمخشري: ((لأن تعذيب الكفار من العدل، كإثابة المؤمنين، وقيل: ظلام: للتكثير[٤]وفي النص القرآني، نفي للظلم (الكثير المتكرر)، وهو ينفي أصل الظلم عن رب العالمين، وإنما النفي للإشارة إلى أن المساواة بين المحسن والمسيء ظلم كبير، ومن هذا النص الكريم يفهم أن العدل يوجب أمرين: أولهما: ألا يعاقب المحسن، وثانيهما: أن يعاقب المسيء.[٥]

وفي الآية الكريمة الخطاب موجه للكافرين، وقد أبهم ما فعلوه من جرم وخطيئة للتأكيد على عظم هذا الجرم وتلك الخطيئة.

---

[١]الشيخ محمد أبو زهرة ،زهرة التفاسير، ، ٣٠٦٠/٦

[٢]محمد الأمين العلوي الشافعي ، تفسير حدائق الروح والريحان، ، ٨٣/١١

[٣]المصدر السابق ٤٨/١١

[٤]الزمخشري ، الكشاف، ، ٢١٧/٢

[٥]الشيخ محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير، ، ٣١٦٠/٦

وقد جاءت الفاصلة ((وأن الله ليس بظلام للعبيد)) مرة واحدة في سورة الأنفال، وجاءت مرتين في القرآن الكريم كله بالصيغة نفسها.[١] ومرتين أخريين بصيغة مشابهة.[٢]

وجاءت فاصلة الأنفال في الحديث عن كفار قريش، اما الفواصل الأخرى فكانت عن الحديث عن اليهود وغيرهم أو جاء الحديث فيها عاماً لكل عبد.[٣]

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الأنفال ،الآية ٥٢).

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: لما ذكر الله سبحانه ما انزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، والدأب: العادة، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، أي دأب هؤلاء مثل دأب فرعون، (والذين من قبلهم) والمعنى: أنه إن جوزي هؤلاء جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله (كفروا بآيات الله)مفسرة لدأب آل فرعون، والباء في(بذنوبهم) للملابسة،أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها،وجملة(إن الله قوي شديد العقاب)معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.[٤]والغرض من هذه الجملة المعترضة التحذير من الوقوع في المعاصي والمخالفات، والتنبيه على أن لهم عذاباً مدخراً سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل، ثم ذكر ما يجرى مجرى العلة في العقاب الذي نزل بهم[٥]

---

[١]آل عمران، ١٨١،١٨٢، الحج ،٨،٩،١٠

[٢]فصلت ٤٦ (ومَاربك بظلام للعبيد) ق، ٢٩ (وما أنا بظلام للعبيد)

[٣]عواطف خياط ، أسرار التناسب والنظم ، ، ص ١٧٣،١٧٤

[٤]الشوكاني ، فتح القدير ، ٢/٤٥٦،٤٥٧

[٥]أبو حفص الدمشقي الحنبلي ، اللباب في علوم الكتاب، ٥٤٣/٩

وقد وصف الله جل جلاله بوصفين يدلان على شدة الأخذ والعذاب، الأول وصف ذاتي معنوي، وهو القوة ، فهو ذو القوة المتين، والوصف الثاني، وهو أن عقابه شديد متناسب مع الذنوب.

وأكد الله تعالى هذين الوصفين بعدة مؤكدات، فأكده بتصويره الجملة بوصف الجلالة، وهو يلقي بالرهبة والهيبة، وبكون الجملة أسمية، وبـ (إن) التي تؤكد القول.[1]

جاء اقتران الاسم الحسن (الله) بالصفة العليا: (قوي شديد العقاب) في القرآن الكريم مرتين،مرة في هذه الآية من سورة الأنفال،ومرة آخري في سورة غافر(الآية ٢١،٢٢) أما اقتران اسمه تعالى (القوي) بغيره من الأسماء، وهو اسم (العزيز) فقط ، فقد جاء (٦) مرات، أما صفته (شديد العقاب) فقد اقترنت بغيرها من الصفات في موضعين، في سورة (المائدة الآية ٩٨) وسورة غافر الآية (٣)، وقد قرنت بهذه الصفات الواردة في الآيتين في معرض التعريف بكمال صفات الذات الإلهية.[2]

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(الأنفال ،الآية ٥٣).

يقول ابن عطية الأندلسي ((ومعنى هذه الآية: الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب بالمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غّير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد (صلى

---

[1] الشيخ محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير، ، ٣١٦٢/٦

[2] عواطف خياط ، أسرار التناسب والنظم، ، ص ١٣٦

الله عليه وسلم) فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغّير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم وأحل بهم عقوبته))[1]

والإشارة بقوله (ذلك) إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده والجملة جارية مجري التعليل لما حل بهم من عذاب الله، وجملةَوأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) معطوفة على (بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً) داخلة معها في التعليل، أي ذلك بسبب أن الله لم يكن مغيراً وبسبب أن الله سميع عليم.[2]

وتعد صيغة فعيل (سميع، عليم) من صيغ البناء ذات الدلالة، وقد وردت الصيغتان لتكونا مبالغة في السمع والعلم (سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم)، وأدت كل منهما في موضعها ما لم تؤده غيرها. فلأن قدرة الله تعالى وملكه غير محدودة، فكذلك سمعه الذي لا يدانيه سمع، وكذلك أيضاً علمه الغزير الوافر الذي لا تحده حدود.

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ}(الأنفال ،الآية ٥٤).

يقول ابن جرير الطبري في تفسير الآية الكريمة (كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله ، من تكذيبهم رسل الله، والجحود لآياته، فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر، إذ غيروا نعمة الله عندهم، بالقتل بالسيف، وأذللنا بعضهم بالإسار والسبّاء)[3]

---

[1] ابن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٥٤١/٢

[2] الشوكاني الفتح القدير، ٢/ ٤٥٧

[3] الطبري ،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ، ٢١/١٤

ويقول الزمخشري: (((كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) تكرار للتأكيد، في قوله (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب))[1]

وقيل: كرر (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ....) لوجوه منها أن الثاني جري مجري التفصيل للأول، لأن في ذلك ذكر إجرامهم، وفي هذا ذكر إغراقهم، وأريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت، وبالثاني ما نزل بهم من العذاب في الآخرة، وفي الأول (بآيات الله)إشارة إلى إنكار دلائل الإلهية وفي الثاني (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) إشارة إلى إنكار نعم من رباهم، ودلائل تربيته وإحسانه على كثرها وتواليها، وفي الأول اللازم منه الأخذ، وفي الثاني اللازم من الهلاك والإغراق.[2] ويظهر من هذا الكلام أن الضمير في (كذبوا) و (أهلكناهم) عائد على المشبه والمشبه به في (كدأب) إذ عم الضمير القبيلتين، وإنما خص (آل فرعون) بالذكر، وذكر الذي أهلكوا به- وهو إغراقهم، لأنه انضم إلى كفرهم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنع الكفر، وأفظعه، ومراعاة لفظ (كل) إذا حذف ما أضيف إليه ومعناه جائز، واختير هنا لمراعاة المعني لأجل الفواصل، إذ لو كان التركيب (وكل كان ظالماً) لم يقع فاصلة.[3]

يقول البقاعي في (نظم الدرر): ((ولما أخبر سبحانه بهلاكهم، وأخبر بالوصف الجامع لهم بالهلاك فقال: (وكل) أي من هؤلاء ومن تقدمهم من آل فرعون ومن قبلهم (كانوا) أي جبلة وطبعاً (ظالمين) أي لأنفسهم وغيرهم واضعين الآيات في غير (مواضعها وهم يظنون بأنفسهم العدل))[4]

---

[1] الزمخشري ، الكشاف، ، ٢١٨/٢

[2] أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط، ، دراسة وتحقيق الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين.دار الكتب العلمية ط١، ١٩٩٣، ٥٠٣/٤

[3] المصدر السابق، ٥٠٣/٤

[4] البقاعي ،نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ، دار الكتب العلمية، بيروت ٣٠٨/٨

والتشبيه منعقد في النص الكريم بين المشركين وآل فرعون والذين من قبلهم، كما هو في الآية السابقة، بيد أنه في هذا التشبيه صرح سبحانه بما لم يصرح به في الآية السابقة.

قال تعالى: ((كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)) والتكذيب من أوصاف المشركين وآل فرعون، فقد جاءتهم المعجزات الباهرة القاطعة فكذبوها، وهذا التكذيب سبب الكفر، فإذا كان قد ذكر في التشبيه الأول بأن السبب في العذاب هو الكفر، فقد صرح في هذا بأن سبب الكفر هو إصرارهم على التكذيب، كأنه لا رقيب عليهم ولا حسيب[١] وعبر سبحانه بأن التكذيب كان بآيات ربهم، ونسبة الآيات المكذبة إلى ربهم تفيد فائدتين:

إحداهما : بيان فظاعة التكذيب، لأنهم كذبوا بآيات الله الذي خلقهم.

والثانية: أن هذه الآيات من المتفضل عليهم بنعمة الوجود ((فأهلكناهم بذنوبهم)) إلفاء عاطفة لربط ما بعدها على ما قبلها، أي أنه بسبب تكذيبهم أهلكهم الله تعالى، ولأن الذنوب المتضافرة يترتب عليها الهلاك لا محالة.

وفي الكلام التفات من الغيب إلى الحاضر، والإسناد إلى الله تعالى بإسناد الإهلاك إليه سبحانه وتعالى، لبيان تأكيد الوقوع، لأنه من الله تعالى، القاهر فوق عباده العزيز الحكيم، لتربية المهابة في النفس، وللتذكير بالرهبة من الله تعالى.

وقد خص آل فرعون بذكر هلاكهم (وأغرقنا آل فرعون) لأن فرعون كان أشهر ملوك عصرهم وأشدهم طغياناً وأرهبهم وأظلمهم، فذكره وقد أهلكه الله بالغرق أرهب لنفوسهم وأشد على غرورهم وطغيانهم.[٢]

---

[١] الشيخ محمد أبو زهرة ،زهرة التفاسير، ، ٣١٦٥/٦

[٢] الشيخ محمد أبو زهرة ،زهرة التفاسير، ، ٣١٦٥/٦

ونخلص إلى أن الآيات الكريمة التي تشير إلى هلاك الذين يكفرون بآيات الله ويكذبون رسله تتضمن تحذيراً من العصيان من كل ما ينحرف بالإنسان عن طاعة الله ورسوله، وهكذا تلتقي الآيات الكريمة في غاياتها ومقاصدها وإعجازها البياني، وقد تضافرت الأساليب والفنون البلاغية في الآيات القرآنية محققة للتعبير القرآني أسمى ما يصل إليه من تأثير ووفاء بالمعني والإمتاع بالجمال الفني، وقد تحقق ذلك على مستوى أساليب التوكيد والتكرار والالتفات والصور البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وإيثار الصيغ الفعلية أو الاسمية المناسبة واستخدام الألفاظ الغنية بالدلالة والإيحاء إلى جانب استخدام الفواصل القرآنية التي كان لها وقعها في النفس فضلاً على أثرها في الصياغة والنظم.

المبحث الثاني

الأسرار البلاغية في مقام تحريض المسلمين على القتال وإعداد العدة له

قال تعالى{كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} (الأنفال ، الآية ٥)

لم يبق أحد من النحاة والمفسرين إلا وأدلى بدلوه في اعراب ((كما)) حتي بلغت الآراء قرابة خمسة عشر وجهاً تتبعها صاحب البحر المحيط ونسبها إلى أهلها.[١]

قال صاحب الكشاف: (كما اخرجك ربك)– الآية– فيها وجهان أحدهما:– أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك. يعني أن حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيل الغزاة، مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب.

والثاني:– أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله {الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} أي الأنفال استقرت لله وللرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات اخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون)[٢] وأيد ذلك ابن عاشور في تفسيره.[٣]

وفي الآية تشبيه تمثيلي وهو نمط تشبيهي يعتمد على وجه الشبه المنتزع من متعدد وهو أبلغ من غيره لما يحتوي عليه وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر وتدقيق نظر، حيث شبه اختصاصه عليه السلام بالأنفال وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الانابة والجزاء، بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى، سامعاً لأمره، راضياً بحكمه، على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة، فشبه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية،

---

[١]أبو حيان الاندلسي ، البحر المحيط ج٤ –ص ٤٥٦

[٢]الزمخشري، الكشاف ج٢ ص ١٩٧

[٣]ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج٩– ص ٢٦٣

فكما بلغت طاعته الغاية في نوع الطاعات، فكذلك بلغت إثابة الله له الغاية في جنس المثوبات، فشبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعقل إلى القتل.[1]

وفي قوله تعالى وان فريقاً من المؤمنين لكارهون. قولان أحدها:- كارهون خروجك.

والثاني:- كارهون صرف الغنيمة عنهم، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال، وليس كراهته لأمر الله تعالى.[2]

قال تعالى{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} (الأنفال ، الآية ٦)

قال صاحب الكشاف الحق الذي جادلوا فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلقي النفير، لإيثارهم عليه تلقي العير {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} بعد إعلام رسول الله لهم بأنهم ينصرون [3] وفى قوله {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} ثلاثة أقوال:

أحدها: تبين لهم فرضه – والثاني : تبين لهم جوابه – والثالث : تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرت به. وفي المجادلين قولان:- أحدهما : أنهم طائفة من المسلمين قاله ابن عباس والجمهور- الثاني أنهم المشركون. [4]

وفي قوله تعالى { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } تشبيه لحالهم في حين المجادلة في اللحاق بالمشركين، بحال من يجادل ويمانع من يسوقه الى ذات الموت، وهذا التفسير أليق

---

[1] محمود صافي، اعراب القران وصرفه وبيانه ج٩- ص١٧٤

[2] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ج٣ ص ٢٤٥

[3] الزمخشري ، الكشاف – ج٢ ص ٢٤٥ .

[4] ابنالجوزي،زاد المسير فيعلمالتفسيرج٣ ص ٢٤٦.

بالتشبيه لتحصل المخالفة المطلقة بين الحالة المشبهة والحال المشبه بها ، وبهذا التفسير يظهر حسن موقع جملة { وَهُمْ يَنظُرُونَ } لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه أو عالماً به[١]

إن عقد المشابهة بين المعني الكلي، وهو المعنى الجامع الذي يوضح به الحقائق بالأمثال التي ضربها وبينها بالنسبية لحال المجادلين للنبي (صلى الله عليه وسلم).

والتشبيه عند الرمَّاني على وجهين: تشبيه بلاغة، وتشبيه حقيقة، فتشبيه البلاغة كتشبيه المجادلين في حالهم بالذين يساقون إلى الموت، وتشبيه الحقيقة نحو: هذا الدينار كهذا الدينار، فخذ أيهما شئت.[٢]

قال تعالى { إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}(الأنفال ، الآية ٧)

قال أهل التفسير: ((أقبل أبو سفيان من الشام في عير قريش، حتي إذا دنا من بدر، نزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم، فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو بن ضمضم الغفاري إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش للمنع عنها ولحق أبو سيفيان بساحل البحر، ففات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل جبريل بهذه الآية)).[٣]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ والمعنى إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ، والطائفتان أبو سفيان ومن معه من المال، وأبو جهل ومن معه من قريش، فلما سبق أبو سفيان ومن معه كتب إلى

---

[١] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج٩– ص ٢٦٨ .

[٢]ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، وزغلول سلامة ، دار المعارف، مصر ، القاهرة ط ١٩٧٦/٣ ص ٨١ .

[٣]ابن عاشور التحرير والتنوير ج٩– ٢٦٨ .

قريش: إن كنتم خرجتم لتحرزوا ركائبكم، فقد أحرزتها لكم، فقال أبو جهل: والله لا نرجع وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد القوم، فكره أصحابه ذلك، وودوا أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال وذلك قوله تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة) أي ذات السلاح قال أبو عبيده: ومجاز الشوكة الحد يقال ما أشد شوكة بني فلان أي حدهم.[1]

وقوله تعالى{وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} ((عطف على جملة وتودون على احتمالي أن واوها للعطف أو للحال، والمراد من الإرادة هنا إرادة خاصة وهي المشيئة ومعنى يحق الحق يثبت ما يسمي الحق وهو ضد الباطل يقال حق الشيء إذا ثبت قال تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ }(الزمر ، الآية ١٩)

والمراد من الحق هنا وهو الإسلام وقد أطلق عليه الحق في مواضع كثيرة منها قوله تعالى { حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} (الزخرف ، الآية ٢٩)

وفي قوله ليحق الحق جناس الاشتقاق ، وفيه دلالة على أن أصل مادة الحق هو فعل حق، وأن أصل مادة الباطل هي فعل بطل وقوله تعالى ((بكلماته)) الباء للسببية وكلماته جمع معرف بالإضافة يفيد العموم فهو يعم أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على ارادته تثبت الحق مثل آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار – وما أمر به الملائكة من نصرتهم للمسلمين يوم بدر.[2]

ثم ختمت الآية القرآنية بقوله تعالى { وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ }

---

[1] ابن الجوزي زاد المسير – ج٣ –ص ٢٤٦

[2] ابن عاشور – التحرير والتنوير – ج٩ – ٢٧١

قال صاحب الكشاف ((وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالى الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك أختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلّتكم، وأعزكم الله وأذلهم))[1]

قال تعالى { لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } (الأنفال ، الآية ٨)

قال صاحب الكشاف: (ليحق الحق وهو اثبات الاسلام واظهاره وإبطال الكفر ومحقه فإن قلت أليس هذا تكفيراً قلت لا لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الارادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها).[2]

وفي الآية العموم والخصوص في قوله تعالى { لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ} بعد قوله تعالى{ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} والتحقيق في التمييز بين الكلامين أن الأول ذكر الارادة فيه مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الاطلاق، ولإرادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة فبين الكلامين عموم وخصوص، واطلاق وتقييد، وفي ذلك مالا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين اطلاق وتقييد.[3]

---

[1] الزمخشري الكشاف- ج٢ – ص ١٩٩-٢٠٠

[2] المصدر السابق نفسه ص ١٩٩-٢٠٠

[3] محمود صافي – اعراب القرآن وصرفه وبيانه ج٩ – ص ١٧٦-١٧٧

ومما ورد في الآية أيضاً من بلاغة – الطباق بين قوله تعالى {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ}. وملحق بالجناس في قوله تعالى :" ويبطل الباطل "

وقوله تعالى { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} لو اتصالية شرطية تدل على المبالغة في الأحوال والكراهة في الآية الكريمة كناية عن لوازمها وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة

فإن المشركين بكثرة عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِم يريدون احقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهة المجرمين.[1]

قال تعالى { ۞ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} (الأنفال ، الآية ٩)

ما ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ((لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وازاره، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني اللهم أنجز لي ما وعدتني إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلا تُعبد في الأرض أبدا، فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتي سقط رداؤه، فأتاه أبوبكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فانزل الله عز وجل: { ۞ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم }(الأنفال الآية ٩)

والاستغاثة طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة ولما كانوا يومئذ في شدة ودعوا بطلب النصر على العدو القوى كان دعاؤهم استغاثة والضمير في

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير– ج٩ –ص٢٧٣

((تَسْتَغِيثُونَ)) مرادا به النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وعبر عنه بضمير الجماعة لأنه كان يدعو لأجلهم، ولأنه كان معلناً بدعائه وهم يسمعونه، فهم بحال من يدعون.[1] وفي ضمير الجماعة تعظيم وتفخيم كذلك .

فاستجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة مردفين أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال المفسرون: (ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل)[2]

وفي قوله تعالى {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ }

في الآية تصريف دقيق على أن النصر عند استغاثتكم سينتزل عليكم لأن الله قد استجاب دعاءكم فعبر عنه بالماضي فاستجاب لكم وفيه دلالة على أن الأمر محسوم لصالح المسلمين ومقطوع به .

قال تعالى { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (الأنفال ، الآية ١٠)

قال صاحب الكشاف: (إلا بشرى) إلا بشارة لكم بالنصر، كالسكينة لبني اسرائيل، يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم.[3]

والآية معطوفة على قوله تعالى { أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } فالضمير المنصوب في قوله،((جعله)) عائد إلى القول الذي تضمنه{ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم

---

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج٩ – ٢٧٣– ٢٧٤

[2] الصابوني ، صفوة التفاسير – ج١– ص٤٩٥ – ٤٩٦

[3] الزمخشري ، الكشاف– ج٢، ص٢٠٢

}(الأنفال ، الآية ٩)أي ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلا ليبشركم، والا فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر بدون أن يبين أنه بإمداد الملائكة، وفائدة التبشير بأمداد الملائكة أن يوم بدر كان أول يوم لقي فيه المسلمون عدواً قوياً وجيشاً عديداً، فبشرهم الله بكيفية النصر، الذي ضمنه لهم أنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميل إلى المحسوسات، فالنصر معني من المعاني يدق إدراكه وسكون النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم.[1]

وقدم الجار والمجرور في قوله {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} وهو يفيد الاختصاص فيكون المعنى ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، ولما أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علماً بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فنزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بها تبين الصفتين وهما العزة المتقضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء، والحكمة مما يصدر من جانبه غرض الافهام في تبين مقتضاه. وجملة{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}مستأنفه استئنافاً ابتدائياً جعلت كالأخبار بما ليس معلوم لديهم.[2]

قال تعالى {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} (الأنفال الآية ١١)

هذه معجزة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن على رضي الله عنه- يصف كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر- فقال: (لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم إلا رسول

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير ج٩ –ص ٢٧٦
[2] ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ –ص ٢٧٧

الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتي أصبح، ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله يدعو ربه ويقول (اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد فلما أن طلع الفجر نادى الصلاة عباد الله فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرض على القتال.[1]

لقد جاءت الآيات منتظمة انتظاماً جميلاً لا سيما حين انتقلت من قصة إلى أخرى وذلك لعناية الله جل في علاه برسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) وبالمؤمنين، فجعل ينتقل من آية إلى أخرى بواسطة ((إذ)) الزمانية وهذا من أبدع التخلص وهو من مبتكرات القرآن الكريم.

والغشى والغشيان كون الشيء غاشياً أي غاماً ومغطياً ، فالنوم يغطي العقل، والنعاس النوم الثقيل وهو مثل السنة، وإنما كان النعاس أمناً لهم، لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم فتلك نعمة، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً ، وعبر بصيغة المضارع في يغشاكم لاستحضار الحالة، ووصف النعاس بأنه أمنة لأنه وارد من جانب المولى عز وجل، فهو لطف وسكينة ورحمة ربانية.

ثم ذكر الله منة أخرى جاءت في وقت الحاجة، وهي انه أنزل عليهم المطر يوم بدر فإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبيه على أنه أكرمهم به، وذلك لكونه نزل في وقت احتياجهم إلى الماء.[2]

---

[1] حديث صحيح – أخرجه الإمام أحمد في المسند ج١ ص ١١٧

[2] ينظر: ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ ، ص ٢٧٩ وينظر: الصابوني – صفوة التفاسير ج١ – ص ٤٩٦

وأما رجز الشيطان الوارد في الآية فهو كيده حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة، وقيل المراد وسوسته إليهم وتخويفه اياهم من العطش، وقيل الجنابة؛ لأنها من تخييله، ثم أنزل الله المطر فزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس.[1]

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} وفي الذي ربط به قلوبهم وقواها ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الصبر – والثاني أنه الإيمان والثالث: أنه المطر الذي أرسله يثبت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها، والربط حقيقته شد الوثاق على الشيء وهو مجاز في التثبيت وإزالة الاضطراب ومنه قولهم فلان رابط الجأش وله رباطة جأش.

ويثبت به الأقدام ((قال صاحب الكشاف ((الضمير في ((به)) للماء ويجوز أن يكون للربط، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة ثبتت الأقدام في مواطن القتال.[2]

قال تعالى{ لا إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } (الأنفال ، الآية ١٢)

جعل الخطاب في هذه الآية للنبي (صلى الله عليه وسلم) تلطفاً به، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به فكان توجيه الخطاب بذلك إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) أولى، لأنه أحق من يعلم هذا العلم ويحصل العلم للمسلمين تبعاً له ، وكأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان أول من استغاث الله ولذلك عرف الله هنا باسم الرب.

---

[1] الزمخشري ، الكشاف ج٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ – وأنظر ابن الجوزي زاد المعاد – ج٣ – ص ٢٤٩

[2] المصدر السابق نفسه – ص ٢٠٤ وأنظر ابن الجوزي زاد المعاد ج٣ – ص٢٤٩

وإضافته إلى ضمير النبي(صلى الله عليه وسلم)ليوافق أسلوب إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم} ولما فيه من التنويه بقدر نبيه صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنه فعل ذلك لطفاً به ورفعاً لشانه. [1]

وقوله تعالى (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب)مستأنفة استئنافاً ابتدائياً إخباراً لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلفهم الله به ولم يقل المولى سبحانه وتعالى

((سنلقي)) لئلا يتوهم أن الملائكة المخاطبين سبباً في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا.

وإنما خصت الاعناق والبنان لأن ضرب الاعناق اتلاف لأجساد المشركين، وضرب لبنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.[2]

وفي قوله تعالى {وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } مجاز مرسل في تسمية الكل باسم الجزء فالبنان الإصبع، عبّر بالجزء وهو الاصبع وأراد الكل وهو الأيدي والأرجل فالعلاقة جزئية.[3]

وفي الآية الكريمة إعجاز علمي ظهر في أرض المعركة للعيان فإن الله سبحانه قد دّل على حضور الملائكة وشهودها القتال يوم بدر بهذه الآية المعجزة في آفاقها وبيانها وخبرها، فكان ضرب الرقاب من الخلف لتقطع مع أن المواجهة كانت من الأمام من قبل المؤمنين علامة مشاركة الملائكة في قتل المشركين، أضف إلى ذلك أن الضرب فوق البنان صعب عادة في أثناء المسايفة، لوجود قبضة السيف التي تحمي اليد والأصابع

---

[1] ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ – ص ٢٧٩– ٢٨٠

[2] ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ – ص ٢٨٢

[3] محمد صافي – اعراب القرآن وصرفه وبيانه– ج٩ – ص١٨٤

فكان ظهور البنان من الكفار مقطعاً في نهاية المعركة هو بحد ذاته دليل آخر على حضور الملائكة أكّده الله تعالى للمؤمنين بقوله { سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ }[1]

إن القرآن الكريم دقيق في اختيار ألفاظه ومعانيه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أحاط بالألفاظ والمعاني ، إذ يضع اللفظ المناسب في محله الأليق به، الأقوى دلالة على المعني المراد ولذلك جاء التعبير بلفظ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، والقلب هو محل الثبات ولذلك عندما أراد الله النصر والتأييد للمسلمين ألقى الخوف والرعب في قلوب المشركين فلم يثبتوا للقتال، وعلى المسلمين أن يضربوا فوق الأعناق، وهذا توضيح إلى مكان قتل المشركين وتدميرهم، ففي الآية تناسق في حسن العرض، وجمال الأسلوب اللذين صاغ بهما الوصف لقتل المشركين وهزيمتهم.

قال تعالى

{ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }(الأنفال ، الآية ١٣) قال صاحب الكشاف: ((الإشارة بذلك إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل: أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم، والمشاقة مشتقة من الشق، لأن كل المتضاربين في شق خلاف شق صاحبه، وسئلت في المنام عن اشقاق العادات فقلت: لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة، كما قيل المخاصمة والمشاقة، لأن هذا في خصم أي في جانب ، وذاك في خصم، وهذا في شق وذاك في شق والخطاب في ذلك لخطاب الرسول عليه السلام أو لخطاب كل واحد)).[2]

---

[1] مأمون حموش– التفسير المأمون – ج٣ – ص ٣٣٧ – ٣٣٨

[2] الزمخشري – الكشاف– ج٢ – ص ٢٠٥

وقال صاحب البحر المديد : (مخالفة الله ورسوله توجب الطرد والبعاد وموافقة الله ورسوله توجب القرب والوداد، وهذه الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء:- امتثال أمره، واجتناب نهيه، والاكثار من ذكره، والاستسلام لقهره، والاقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم، والتأدب والتخلق بأخلاقه، وبأضداد هذه الاشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبعده ، وهي مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، والغفلة عن ذكره، والتسخط عند نزول قهره، وعدم الاقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة، حتي يفضي به الحال إلى المشاققة والمباعدة.[١]

وقيل في قوله تعالى{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} تعليل لأن الباء في قوله (بأنهم) باء السببية فهي تفيد التعليل ولهذا فصلت الجملة، والجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله والمراد من قوله ف{إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الكناية عن عقاب المشاقين وبذلك يظهر الارتباط بين الجزاء وبين الشرط باعتبار لازم الخبر وهو الكناية عن تعلق مضمون ذلك الخبر بمن حصل منه مضمون الشرط.[٢]

يقول سيد قطب رحمه الله: ((ينزل عقابه الشديد على الذين يشاقونه ويشاقون رسوله، وهو قادر على عقابهم وهم أضعف من أن يقفوا لعقابه، قاعدة وسنة، لا فلتة ولا مصادفة، قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده، وإقامة منهج الله وحده، ثم وقف منها عدّو لها موقف المشاقة لله ورسوله، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله.[٣] فإن الله شديد ....توكيد للخبر المثبت.

---

[١] أحمد بن محمد الحسني الادريسي – البحر المديد – ج٣ – ص ١١

[٢] ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ – ص ٢٨٣-٢٨٤

[٣] سيد قطب – في ظلال القرآن– ج٣ – ص ١٤٨٦

قال تعالى { ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } (الأنفال ، الآية ١٤)

قال صاحب الكشاف: (الخطاب في ذلكم للكفرة على طريق الالتفات ومعني الآية ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع المضمر))[١]

والالتفات عند بعضهم أي البلاغيين هو التحول في استخدام الضمائر والعدول من صيغة إلى أخرى في الحالات الثلاث : التكلم ، أو الخطاب، أو الغيبة .[٢]

وقال صاحب البحر المحيط: (جمع بين العذابين عذاب الدنيا وهو المعجل وعذاب الآخرة وهو المؤجل والإشارة بذلكم، إلى ما حل بهم من عذاب الدنيا والخطاب للمشاقين، ولما كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً سمي ما أصابهم منه ذوقاً، لأن الذوق يعرف به الطعم وهو يسير ليعرف به حال الطعم الكثير)[٣]

وقال صاحب البحر المديد: (إن معنى الآية ذوقوا ما عجل لكم من النقمة في الدنيا مع ما يحل عليكم في الآخرة من عذاب النار ووضع الظاهر موضع المضمر ، للدلالة على أن الكفر يسبب العذاب العاجل والآجل)[٤]

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب جاء على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا الله ورسوله متوعداً اياهم سوء المصير. وفي قوله ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ } استعارة مكنية حيث شبه العذاب بالطعام الذي يذاق فذكر المشبه وحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته وهي الإذاقة.

---

[١] الزمخشري – الكشاف– ج٢ – ص ٢٠٥

[٢] د. أحمد مطلوب ، معجم النقد العربي القديم ، ط١ ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ،١٩٨٩ ٢٢٣/١ .

[٣] أبو حيان الاندلسي – البحر المحيط – ج٤ – ص ٤٦٦

[٤] أحمد بن محمد الحسني الادريسي– البحر المديد – ج٣ – ص ١٠

قال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} (الأنفال الآية ١٥)

قال صاحب الكشاف: ((زحفاً حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الداهم، الذي يرى لكثرته كأنه يزحف، أي يدب دبيباً، من زحف الصبي إذا دب على أسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف، والمعني إذا لقيتموهم للقتال وهم كثر جم وأنتم قليل فلا تفروا فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم))[١]

هذه الآية عند جمهور أهل العلم نزلت بعد انقضاء وقعة بدر، وهو القول الذي لا ينبغي التردد في صحته، فإن هذه السورة نزلت بسبب الاختلاف في أنفال الجيش من أهل بدر عند قسمة مغانم بدر، وما هذه الآية إلا جزء من هذه السورة فحكم هذه الآية شرع شرعه

الله على المسلمين بسبب تلك الغزوة لتوقع حدوث غزوات يكون جيش المسلمين فيها قليلا كما كان يوم بدر، فنهاهم الله عن التقهقر إذا لاقوا العدو.[٢]

قال القرطبي: ((الزحف الدنو قليلاً قليلاً يقول إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفروا عنهم ولا تعطوهم أدباركم حرم الله ذلك على المؤمنين حيث فرض الله عليهم الجهاد وقتال الكفار))[٣].

قال ابن عطية : والأدبار جمع دبر . والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشعة على الفار، ذامة له.[٤]

---

[١]الزمخشري – الكشاف– ج٢ – ص ٢٠٦

[٢]ابن عاشور – التحرير والتنوير – ج٩ – ص ٢٨٧

[٣] القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٤٠/٨

[٤]مأمون حموش – التفسير المأمون – ج٣ – ص ٣٣٩

وتولية الأدبار كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو فهو مستعمل في لازم معناه مع استعمال بعض المعني الأصلي، وإلا فإن صرف الظهر إلى العدو بعد النصر لابد منه، وهو الانصراف إلى المعسكر فلذلك تعين أن المفاد من قوله{فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ } النهي عن الفرار قبل النصر أو القتال.[1]جاءت بصيغة الجمع لتأكيد المنع لهم جميعاً.

قال تعالى: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } (الأنفال ، الآية ١٦)

قال صاحب الكشاف: " نهي عن الفرار يومئذ إلا في حالة الكر والفر يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها أو منحازًا إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وعن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : (خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت: يا رسول اللّه نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فئتكم). وانهزم رجل من القادسية، فأتى المدينة إلى عمر رضى اللّه عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلكت، فررت من الزحف، فقال عمر رضى اللّه عنه: أنا فئتك. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: إنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر."[2]

ثم انظر إلى فن التعريض في قوله تعالى: (من يولهم يومئذ دبره) فقد ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها، فأتي بلفظ الدبر دون الظهر وبعضهم يدخله في ضمن الكناية.[3]

---

[1]ابن عاشور – التحرير والتنوير ج٩ –ص ٢٨٩

[2]الزمخشري ، الكشاف– ج٢ –ص ٢٠٦

[3]محمود صافي ، اعراب القرآن وصرفه وبيانه– ج٩ –ص١٨٩

وقوله تعالى {إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ } أي الا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى أو نصب كمين للتمكن من الأعداء ، أو متحيزاً إلي فئة أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم سوى الجماعة أو الفئة التي هو منها قال (صلى الله عليه وسلم) أو الأمير المسلم.

وأما الفئة فهي جماعة الناس سميت بذلك لرجوع بعضهم الى بعض في التعاضد والتناصر بمعنى الرجوع إلى حالة محمودة.

"فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير".

أي فقد رجع بسخط عظيم ومقره وسكنه الذي يسكن إليه نار جهنم وبئس المصير والمآل. هذه عقوبة الذي يفر دون سبب فإنه حرام ويُعد كبيرة من الكبائر.

وفي قوله تعالى {وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ} استعارة مكنية حيث شبه جهنم البيت الذي يأوي إليه الإنسان ليرتاح فذكر المشبه وحذف المشبه به وذكر صفة من صفاته وهو الإيواء.

قال تعالى: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (الأنفال ، الآية ١٧)

ورد في سبب نزول هذه الآية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجعوا من بدر جعلوا يقولون قتلنا وقتلنا وأقبلوا على التفاخر، ولما طلعت قريش قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك اللهم أني أسألك ما وعدتني، فأتاه جبريل عليه السلام فقال:- خذ قبضة من تراب فارمهم بها قال:- لما التقي الجمعان - لعلى رضي الله عنه اعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في

وجوهم وقال شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.[1]

وقدم المسند إليه –لفظ الجلالة – على المسند الفعلي– قتلهم– في قوله تعالى { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } دون أن يقال ولكن قتلهم الله لمجرد الاهتمام: لأن نفي اعتقاد المخاطبين أنهم القاتلون قد حصل من جملة النفي ، فصار المخاطبون متطلبين لمعرفة فاعل قتل المشركين فكان مهّماً عندهم تعجيل العلم به استطراد بذكر تأييد إلهي آخَر لم يُجر له ذكر في الكلام السابق.[2]والاستطراد هو الإنتقال من معنى إلى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني ومنه قول الحماسي :

وإنا لقوم ما نرى القتل سُبــة

إذا ما رأته عامر وسلـول.

واختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال:

أحدها، أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم.

والثاني: أنه أضاف القتل إليه لأنه تولى نصرهم.

والثالث: أنه ساقهم إلى المؤمنين وأمكنهم منهم.

والرابع أنه ألقى الرعب في قلوبهم.[3]

وفي قوله { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} ثلاثة أقوال:

---

[1]الزمخشري ، الكشاف– ج٢ –ص ٢٠٧

[2]ابن عاشور ، التحرير والتنوير– ج٩ –ص ٢٩٤

[3]ابن الجوزي، زاد المسير – ج٣ –ص ٢٥٢

أحدها: أن المعنى وما ظفرت أنت وما أصبت ولكن الله أظفرك وأيدك قاله أبو عبيدة.

والثاني: وما بلغ رميك كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير إنما الله تولى ذلك قاله الزجاج.

والثالث:- وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ذكره ابن الأنباري.[1]

ويجوز أن يكون قوله تعالى { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }مستعمل في معناه المجاز أي وما أصبت أعينهم بالقذى ولكن الله أصابها به لأنها إصابة خارقة للعادة فهي معجزة للنبي (صلى الله عليه وسلم) وكرامة لأهل بدر فنفيت عن الرمي المعتاد واسندت إلى الله لأنها بتقدير خفي من الله.[2]

وتتضح بلاغة فن الاستدراك والرجوع وهو الكلام المشتمل على لفظة (لكن) في قوله تعالى {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وقوله { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} فقد أتي الاستدراك في هذه الكلمات في موضعين كل منهما مرشح للتعطف فإن لفظة تقتلوهم وقتلهم، ورميت ورمى تعطف وهذا أقرب استدراك وقع في الكلام لتوسط حرفه بين لفظي العطف في موضوعين.[3]

وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي فعل ذلك ليقهر الكافرين وينعم على المؤمنين بالأجر والغنيمة، والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها، والبلاء يكون في الخير والشر قال تعالى: { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} (الأنبياء ، الآية ٣٥)

---

[1] المصدر نفسه ، ج٣ – ٢٥٣ – ٢٥٤

[2] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج٩ – ص ٢٩٤

[3] محمد صافي ، الجدول في اعراب القرآن وصرفه وبيانه ج٩ ص ١٩١

حين تحسن استخدام الخير فهذا بلاء، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله فهذا كله اختبار من الله عز وجل.

قال صاحب الكشاف: (وليبلى المؤمنين (ليعطيهم) ، بلاءً حسنا، (عطاء جميلاً) والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعله إلا لذلك.[1]

ثم ختمت الآية بقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

يقول الامام الرازي ((سميع لكلامكم عليم بأحوال قلوبكم وهذا يجرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور، ويعلم أن الخالق تعالى مطلع على كل ما في الضمائر والقلوب.[2]

قال تعالى: { ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } (الأنفال ، الآية ١٨)

الإشارة ب {ذَلِكُم} إلى البلاء الحسن وهذه الإشارة لمجرد تأكيد المقصود من البلاء الحسن وأن ذلك البلاء علة للتوهين.

واسم الإشارة يفتتح به الكلام لمقاصد يجمعها التنبيه على أهمية ما يرد بعده كقوله تعالى: { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ} (ص الآية ٥٥) ويجيء في الكلام الوارد تعليلا كقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (الأنفال ، الآية ٥١).

ويجوز أن تكون الإشارة ب {ذَلِكُم} إلى الأمرين، وهو ما اقتضاه قوله: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧] من تعليل الرمي بخذل المشركين وهزمهم وابلاء

---

[1] الزمخشري ، الكشاف – ج٢ – ص ٢٠٨

[2] الرازي ، مفاتيح الغيب – ج٧ – ص ٣٨١

المؤمنين البلاء الحسن (وكيد الكافرين) هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرة، وذلك أن جيش المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لما علموا بنجاة عيرهم، وظنوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم وليس ذلك لمجرد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنهم غلبوا المسلمين فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء.[1]

وفي الآية بيان عجيب وتصوير رفيع لحالة أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد رجوعهم من بدر بانهم قتلوا أو رموا فكان التفاخر بينهم، ولكن الله أظهر لهم قدرته وأن النصر والقتل كله من عند الله تعالى وهو المستحق لإرجاع الأمور إليه، فختم الآية بما يناسب المقام مؤكداً بأن الله سميع بقول الصحابة عليم بما في قلوبهم.

ويظهر أن النفي لم يكن فيه افتخار لجهد الصحابة ولكنه من باب التحذير من الإغترار والإفتخار بما يوفق الله الإنسان إليه، وهذا فيه لفت إلى أن النصر كله من عند الله لقوله تعالى { وَما النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. (آل عمران ١٢٦)

قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }(الأنفال الآية ٣٩)

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بمقاتلة الكافرين ، حتى لا يوجد فيهم شرك قط ، ولا يُفتتن مؤمن في دينه ، وحتى تكون كلمة الله هي العليا ، بمعنى أن يكون حكم الله تعالى هو الغالب ، وتكون كلمته هي النافذة ويضمحل عنهم كل دين باطل ، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ، فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا وأقبلوا واستجابوا لكم ، وتركوا ما هم عليه

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير – ج٩ – ص ٢٩٧ – ٢٩٨

من شرٍّ واعتداء وإيذاء في الإعتقاد ، فليعلموا أن الله عليم بما تُخفي صدورهم وُمطلع على أعمالهم ، وإن كانت أعمال إيمان صادق ، أم أعمال كفر ونفاق كاذب.[1]

جاءت لفظة (فِتْنة) في الآية الكريمة نكرة لتفيد العموم فهي قد تعني إيذاء المؤمن بصور متعددة من الإيذاء ، مثل منعه من اعتقاد ما يراه أنه الحق ، أو حمله على ترك ما يعتقد ، واستخدام مختلف وسائل الإعتداء والقمع والقهر والإكراه ، كما أن الشرك نفسه صورة من صور الفتنة لما يحمله من تحدٍ للمؤمن وتنافر واختلاف مع ما يؤمن به .

كما اشتملت الآية الكريمة على توكيد في قوله تعالى {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله} فلفظة (كلُّه) توكيد للدلالة على أن العبادة لله وحده وليس لشيء سِواه ، وفي ذلك إعلان عن ألوهية الله وربوبيته للعالمين ، وأن الإسلام هوا الدين الحقّ الذّي ليس لدين باطل أن يُزاحمه أو يقف في وجهه .

والفاصلة {فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِير} جواب للشرط {فَإِنِ انْتَهَوا} ، والفاء واقعة فيها ، وقد أُكدت (بإن) والإسمية ، لإقرار مراقبة الله في نفوسهم لأعمالهم بعد إظهارهم الإنتهاء عن أذى المؤمنين ، إذ قد يغيب ذلك عنهم حين يظهرون الموادعة ، وأحقادهم تحركهم للكيد والمكر من جديد .

وجاء المسند إليه مصرّحاً به ، رغم وروده في الجملة السابقة {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله}، ليسكن المؤمنون إلى جنب إلههم ، ولتتعلق قلوبهم به توكلاً عليه وتفويضاً إليه ، فما سيُظهره الكافرون من انتهاء عن القتال ، وكف عن الأذى ، سيكفيهم الله مدى تحققه ووقوعه .

---

[1] انظرالزمخشري / الكشاف ١٥٧/٢/ ،البحر المحيط ، أبو حيان ٤٩٥/٤ ، جامع البيان للطبري٢٤٨/٩ ، أسرار التناسب والنظم ، عواطف خياط ص٥٤

وجاء المسند بـ(صِير) نكرة لإفادة معنى السعة والإغراق والتمكن المطلق ، فإن بصره سبحانه يلحق مخلوقاته كلها ، عظيمها ودقيقها ، خفّيها وجلّيها ، ينفذ إلى بواطنها كما يحيط بظواهرها ، لا يغيب عنه منها شيء.

وقوله تعالى : (بِمَا تَعْمَلُونَ) للإهتمام ، فكل أعمالهم التّي سيشرعون فيها يبصرها ربنا عزّ وجلّ ويطّلع ُ عليها.

ومراقبة الله لإعمال الكافرين دائمة مستمرة ، مما يتناسب مع اسمية الجملة [1]

وقد تضمّن ختام الآية تقديماً وتأخيراً لا يخلو من دلالة ، فقد قدم الله عزّ وجلّ قوله (بِمَا تَعْمَلُونَ) على صفته (بَصِير) ليدل على أنّ أعمالهم التي ستقع وتحصل فيهم لا يفوت بصره سبحانه منها شيء .

قال تعالى { وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُم نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾}(الأنفال الآية ٤٠) أي وإن أعرضوا عن الإستجابة لكم ، واستمروا على خلافكم ومحاربتكم ، فلتطمئن قلوبكم إلى أن الله معكم وناصركم ومولاكم من دونهم ، ويأتي ختام الآية الكريمة ليزيد من فرح المؤمنين ومن طُمأنينة قلوبهم بولاية الله لهم ، ونصره إياهم على الكافرين ، إن هُم أعرضوا عن مسالمتهم ، وكف أذاهم عنهم ، ولتكون تهديداً وتخويفاً للكافرين ، بمحاربة الله لهم وانتقامه للمؤمنين منهم .[2]

---

[1]– عواطف خياط ، أسرار التناسب والذّظم في الأسماء الحسنى والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال ، ص٥٦ /٥٧

[2]– المرجع السابق ص٥٦

وتضمن ختام الآية الكريمة توكيداً لفظياً (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير) لتأكيد ولاية الله ونصره للمؤمنين ، ونِعم من الألفاظ التّي تقال في مقام المدح ، والمدحُ بالنسبة لله تعالى الشّكر ، والثناء على الله بما هو أهله ، فنعم هو ولّياً موالياً ، ونعم الله نصيراً غالباً [(١)]

وفصلت الفاصلة (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير) عن الجملة التّي قبلها : (فَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَوْلَاكُم) وأسلوب الفصل جاء لكمال الاتصال بينهما ، والفصل والوصل من مباحث علم المعاني والوصل هو عطف بعض الجمل علي بعض والفصل هو ترك العطف .[٢]

فإن جملة (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير) نزلت منزلة التأكيد لاتحاد المعنى ، فقد جاءت مدحاً وثناءً لولاية الله سبحانه في الجملة الأولى ، وجاء المسند إليه (الْمَوْلَى ، النَّصِير) معّرفاً بأل التعريف ، للعهد ، إذ ولايته ونصرته معهودة عندهم ، ولهم سابق طمأنينة بمعرفتها والسكون إليها ، وعُطفت الجملة الثانية (ونعم النّصير) على الأولى ، (نِعْمَ الْمَوْلَى) لأن الولاية فيها معنى تكفّل بالنصرة والظهور[(٣)] فقد اتفقت الجملتان في الإنشائية معنى وفي الخبرية لفظاً ، وأتت الجملة فعلية ، لتلُفت الأذهان إلى تكرر وتجدد المدح والثناء على الله الكريم في ولايته ونصرته للمؤمنين ، كلما مرت بهم الإض ، وتكررت بهم الضوائق ، يظهر لربهم عندها المدح المطلق والثناء العظيم على ولايته ونصرته لهم ، بأحب وأعظم وأوفى ما تكون الولايةوالنّصرة [(٤)]

[(١)]– الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير ، ، ٣١٢٩/٦

(٢) احمد مصطفي المراغي ، علوم البلاغه ،ص١٦٣-١٦٧

[(٣)]– محمد طاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ،٣٤٨/٨

[(٤)]– عواطف خياط ، أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال ، ،ص٥٧/٥٨

وقد جاء اقتران اسمي الله ، (الْولِيُّ ، النَّصِيرُ) في القرآن الكريم كله ثلاث مرّات ، مرة في سورة الأنفال في الآية السابقة ومرة في سورة الحجّ [١] والمرّة الثالثة في سورة النّساء[٢]

قال تعالى { أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ } (الأنفال الآية ٦٥)

تضمّنت الآية الكريمة في مطلعها أسلوباً إنشائياً (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) فالله سبحانه وتعالى يناديه بهذا النّداء المحبب إلى نفسه ، وهي صفة النّبوة تشريفاً وتكريماً له –صلى الله عليه وسلم– فلم يناده باسمه الصّريح في كل القرآن ، بينما نادى كثيراً من أنبيائه عليهم السلام بأسمائهم الصّريحة كآدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وداود ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم [٣] ، ثم يأتي بعد النّداء الأمر للنّبي عليه الصلاة والسلام بأن يحرّض المؤمنين على القتال حثّاً متواصلاً ، ويذكّرهم بفضله وما أعده الله لأهله ، وهذا الأمر أسلوب إنشائي آخر يفيد الحث وشحذ الهمم وقد يحقق صورة من التحفيز على الثبات والصمود والإنقياد لله وأحكامه في المواقف الحرجة كالقتال ، ولقد أمر الله تعالى نبيه أن يحرّض أصحابه على القتال ووصفهم بصفة المؤمنين وهي تحمل تشريفاً لهم ، فقد جعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلّة عدد جيشهم ، وعندما يكون التّحريض للمؤمنين يكون ذلك –دون شك– باعثاً في نفوسهم الشّجاعة والجرأة والثبات في المعركة ، وكل

---

[١]– سورة الحج الآية ٧٨

[٢]– سورة النساء الآية ٤٥

[٣]– د.عبد الحقّ القاضي ، آيات القتال في سورة الأنفال (دراسة وتحليل) ، مجلّة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ، عدد١٣ ،٢٠٠٦،ص٧٩

مؤمن يدرك ما أعدّه الله تعالى للمؤمنين المجاهدين في سبيله من جزيل الثواب وكثير النعم مما يزيده شوقاً إلى لقاء ربه.

وقد اشتملت الآية الكريمة على مقاصد عديدة منها أن الله تعالى يبشّر المؤمنين تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار[١]. وقد أثبت في الشرط الأول قيداً وهو الصبر ، وحذف من الثاني ، وأثبت في الثاني قيداً وهو كونهم من الكفرة ، وحذف من الأول ، والتقدير : مائتين من الذّين كفروا ، ومائة صابرة ، فحذف من كل منهما ما أثبت في الآخر ، وهو في غاية الفصاحة[٢].

وإن قوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِّنْكُم عِشْرُونَ صَابِرُونَ) يدل على أنه تعالى ما أوجب هذا الحكم إلا بشرط كونه صابراً قادراً على ذلك ، وإنما حسن هذا التكليف ، لأنه مسبوق بقوله تعالى (حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنّصرة ، كان هذا التكليف سهلاً ، لأن من تكفّل بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إيذائه .[٣]

وفي قوله تعالى:(يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ذكر الوصف بالموصول للدلالة على أن الكفر هو سبب الضّعف ، كما أن الإيمان والصبر هو سبب القوة والعزّة.

وقد علل الله سبحانه وتعالى هزيمة الكفّار بقوله تعالى كلماته :(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ) وهذا القول متعلق بقوله (يَغْلِبُوا)، أي أن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم ، وأنّهم يقاتلون على غير بصيرة ، ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب(٤).

---

[١]– الزمخشري ، الكشاف انظر: فتح القدير ٤٦٥/٢، والكشاف ٥٩٧/٢

[٢]– ابن عادل الحنبلي ، انظر :اللباب في علوم الكتاب ٥٦٣/٩، العجيلي الفتوحات الآلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائقالخفيّة ، ، دار الفكر ، بيروت ٢٢٦/٢

[٣]– اللباب في علوم الكتاب ٥٦٤/٩

[٤]– الشوكاني ، فتح القدير ، ، ٤٦٥/٢

قال تعالى : { الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } (الأنفال الآية ٦٦)

قيل في التنصيص على غلب المائة للمائتين والألف للألفين : على أنّه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددهم العشرات والمئات إلى الآلاف ، ثم أخبر سبحانه وتعالى أن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم يبشرهم بأنه مع الصابرين ، وفي ذلك ترغيب إلى الصبر والتأكيد عليه ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ، لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه[1].

وتختتم الآية الكريمة بقوله تعالى:(واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) وهو تذييل يتناسب مع الآيات التي تحضُّ على القتال وتَعِد المجاهدين بالنّصر .

وقد أبانت الآية الكريمة عن نصرة الله للفئة المؤمنة القليلة بإذن الله على الفئة الكافرة الباغية الكثيرة ، وقد وردت هذه الخاتمة (الفاصلة)(واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) مرّتين في سورة الأنفال مرة في الآية السابقة وفي قوله تعالى {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }(الأنفال الآية ٤٦)

والآيتان فيهما وعد بمعية الله تعالى الصابرين في مواضع القتال ، ولم يرد مثل هذه الفاصلة في كتاب الله إلا في موضعين من سورة البقرة [2]وتبين أنه لم تُختم آيات الصبر

---

[1]–الشوكاني ، فتح القدير ٤٦٦/٢

[2]– سورة البقرة الآية ٢٤٩/١٥٣

بوعد الله للصابرين بالمعية والمجد إلا آيات الصبر في مواضع القتال ، وفي هذا تشريف لهذه الفريضة العظيمة وتشريف لأهلها القائمين بها[١].

وقد وقع وصل بين الفاصلة (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) وجملة (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ) وذلك لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى ، فإن بين الجملتين تناسباً في المضمون فبشارته سبحانه بمعيته للصابرين ، إذا امتثلوا أمره بالثبات والصبر أمام اثنين من الكافرين في القتال .

وقد خلت الآية الكريمة من المؤكدات ، لأنهم عهدوا معية ربهم ، ولهم معه سبحانه سابق صلة وتجربة ، حين التكليف بملاقاة العشرة قبل نزول التخفيف ، إذ ذاقوا في تلك الأوقات حلاوة معيته سبحانه ، ولذّة القتال والمصابرة من أجله ، فكان الصبر على قدر الكرب ، وكان الكرب على قدر الصبر.

وعرف المسند إليه (الله)بالعلمية ، حتّى يتلذذوا بذكر اسم مولاهم ويتصبروا بسماعه ، فيزدادوا أنساً بمعيته وقربه .

والألف واللام في (الصَّابِرِينَ) للعهد ، فالصابرون الموعودون بهذا القرب والمعية من الله ، هم من تأدّبوا بهذه العبادة القلبية التي علمهم إياها ربهم ، وبلغوا درجاتها المطلوبة ، وتكون للإستغراق ،أي كل الصابرين .

واسمية الجملة أفادت دواماً واستمراراً ، يفتح أبواب الرجاء في قلوب عباده المؤمنين أن يوفقهم للصبر في القتال ، ليظفروا بمعيته وقربه دائماً [٢]

[١]-، عواطف خياط، أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال ،ص١٧٢

[٢]-عواطف خياط، أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال ص٩٩، ١٠٠

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن الأسرى والأمر بحسن معاملتهم

تعددت أساليب التعامل مع الأسرى من ديانة إلى أخرى ومن مجتمع إلى مجتمع وإن كان الذي يغلب على الجميع قبل ظهور الإسلام القسوة والبطش والظلم ، ورغم شيوع تلك الأساليب في التعامل مع الأسرى إلا أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يحد عن طبيعته الأخلاقية في التعامل معهم فمع انهم يريدون القضاء على الكيان الإسلامي بكل جوانبه بداية من قتل للرسول –صلى الله عليه وسلم– وانتهاء بإبادة المسلمين ، عاملهم النبي–صلى الله عليه وسلم–معاملة كريمة وقد اختُلِف حول عددهم قيل تسعين أسيراً من المشركين وقيل ثمانين واستشار فيهم أصحابه الكرام ماذا يفعل بهم ولكن تجلى حرص رسول الله –صلى الله عليه وسلم – في تعامله معهم في الإهتمام بمأكلهم وبكل ما يحتاجون ، وقد روى ابن عباس –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم بدر أوصى أن يكرموا الأسرى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند كل شي .

قال تعالى{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (الأنفال الآية، ٦٧)

ما ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الإمام أحمد بأسناد صحيح من حديث عمر قال: (فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم، فقال أبوبكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ترى يا بن الخطاب؟

قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبوبكر ، والله أرى أن تمكنني من فلان- قريب لعمر - فاضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتي يعلم الله أن ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. قال: فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر ولم َيه ْو ما قلت وأخذ منهم الفداء.

فلما كان الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض على عذابكم أدني من هذه الشجرة- لشجرة قريبة- وأنزل الله تعالى - ما كان لنبي أن يكون له أسرى إلى قوله - عذاب عظيم- [١]

وقيل إن الآية عتاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه على أخذ الفداء، والمعنى لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه.[٢]

وكره الله أخذ الفداء من الأسرى لأن الله يريد أن يحد من شوكة الكفار ويقلل عددهم لأن هذه هي المعركة الأولى التي تحدث بين المسلمين والكافرين.

والأمر الثاني هو ما ذكره عمر رضي الله عنه بقوله: حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ويؤيده ما أخرجه الطبري قال: (لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا أحب الغنائم غير عمر بن الخطاب فإنه جعل لا يلقى أسيراً إلاّ ضرب عنقه وقال

[١]أخرجه أحمد في المسند ج١-٣٠-٣١- من حديث عمر رضي الله عنه -وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد ورقمه ١١٦٣.

[٢]الصابوني- صفوة التفاسير ج١ - ٥١٤ - ٥١٥

سعد بن معاذ: يا رسول الله الاثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ)[١]

ثم انظر إلى الاستعارة في قوله تعالى ((حتى يثخن في الأرض)) أصل معنى الثخانة الغلظة والكثافة في الأجسام، ثم أستعير للمبالغة في القتل والجراحة، لأنها لمنعها من الحركة صيرته كالثخين الذي لا يسيل، وقيل إن الإستعارة مبينة على تشبيه المبالغة المذكورة بالثخانة في أن كل منها شدة في الحيلة.[٢]

((تريدون عرض الدنيا)) أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل وسمي الفداء عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض المقابلة للزوال.

والله يريد الآخرة. قال الجوزي في هذه الآية قولان:

أحدهما: يريد لكم الجنة– قاله ابن عباس

والثاني: يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة ذكره الماوردي[٣] .

وقال الزمخشري: والله يريد الآخرة ((يعني ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل والله عزيز يغلب أولياءه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء، ولكنه حكيم يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا))[٤]

---

[١]الزمخشري– الكشاف ج٢– ص ٢٣٧

[٢]محمود صافي– اعراب القران وصرفه وبيانه ج١٠ –ص ٢٦٣.٢٦٤

[٣]ابن الجوزي– زاد المسير في علم التفسير ج٣ –ص ٢٨٩

[٤]الزمخشري– الكشاف ج٢– ص ٢٣٧

إن لفظ يثخن استعير للقوة والشدة في الأمر وإن الله أعد للمجاهدين الذين اثخنوا بجراح الحرب في أنفسهم وأجساد الكفار ليعلموا أن الأمر الذي فرضه الله يقوى من عزةً الإسلام والمسلمين وثواباً عظيماً لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، والقرآن حينما يفرق هذه الأساليب لم يكن يقصد بذلك أنه جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز أو ما يطرد مع المصطلحات وإنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانيه فهويستعير حيث يستعير، ويوجز حيث يوجز ويطنب ويوجز ويؤكد، ويعترض إلى آخر ما تم أخص في البلاغة ومذاهبها.

{ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (الأنفال الآية، ٦٨)

قال صاحب الكشاف: (لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أنه لا يعاقب أحداً بخطأ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد، لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم. وقيل كتابه أنه سجل لهم الفدية التي أخذوها وقيل إن أهل بدر مغفور لهم)[1]

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث علي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (لعل الله أطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[2]

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله ((هذه الآية الكريمة تشرح وتبين أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذي يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الجرائم

---

[1] المصدر السابق نفسه ج٢– ص ٢٣٧

[2] أخرجه البخاري في كتاب المغازى ورقمه ((٣٩٨٣))

والعقوبات، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى من قبل ان تستقر الدعوة، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذي يحددها لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين، ولكن بما أن هذا الفعل لم يحرم من قبله فلا عقاب عليه))[1]

ويفهم مما سبق أن الآية اشتملت على المعاني الآتية:

١- قضاء الله عز وجل في اللوح المحفوظ ألا يعذب أهل بدر.

٢- قضاء الله ألا يضل قوما بعد إذ هداهم حتي يبين لهم ما يتقون.

٣- قضاء الله سبحانه وتعالى الذي سبق بإحلال الغنيمة لأهل بدر ولهذه الأمة.[2]

ومما ورد في الآية من بلاغة – حسن فن التعليل في قوله تعالى :

{ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }(الأنفال الآية ٦٨)

وفن التعليل هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة العلة التقدم على المعلول، وهنا في الآية الكريمة لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ وهو أن يعاقب قوماً قبل تقديم ما بين لهم أمراً أو نهياً.[3]

في الآية ثلاثة أفعال ماضية سَبَقَ، مَسَّ ، أَخَذْ ، تدل على أن الأمر في اللوح المحفوظ قد كتب بقلم القدرة وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه أن ألفاظه متسقة مع أحكامه والسر في بلاغة هذا التصريف هو أن العناية الإلهية قد سبقت لكم من عند الله وهذا فضل عظيم.

---

[1] الشعراوي – تفسير القرآن – ج٨ – ص ٤٨١٢

[2] مأمون حموش– التفسير المأمون – ج٣ – ص ٤١٠

[3] محمود صافي – اعراب القرآن وصرفه وبيانه ج١٠ – ص ٢٦٥

{فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الأنفال الآية ٦٩)

فإن قلت ما معنى الفاء؟ قلت: التسبب والسبب محذوف معناه قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ، وحلالاً نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً وقوله إن الله غفور رحيم. معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.[١]

قال ابن عباس: وكانت الغنائم قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم في الأمم إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان وحرم الله عليهم أن يأكلوا منه قليلاً أو كثيراً .

وقال الحسن: وكان الله تبارك وتعالى قد كتب في أم الكتاب المغنم والأسارى حلال لمحمد وأمته، ولم يكن أحله لأمة قبله[٢]

والأمر في اللغة إذ يتصرف فيأتي بمعنى الإباحة كما في قوله تعالى(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا) والشاهد في قوله (فَكُلُوا) قد جاء بمعني الإباحة والسر في ذلك الحث على الرزق الحلال الطيب فإذا كان كذلك فإن الأكل مباح.

والأمر الثاني في الآية يأتي تصريفه على سبيل التحبب وهو قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللّهَ) فإن فعلتم ذلك فاعلموا أن الله يغفر الذنب الذي مضى ويدخل في رحمته من اتقاه.

قال تعالى{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الأنفال الآية، ٧٠)

[١]الزمخشري- الكشاف- ج٢ -ص ٢٣٨
[٢]مأمون حموش، التفسير المأمون- ج٣ -ص ٤١٠

نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل ونوفل وحليفه عتبة بن عمر على أن يؤدي ثمانين أوقية من الذهب عن كل واحد عشرين أوقيه فقال يا محمد : تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت فقال أين الذهب الذي دفعته الى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك ، فقال العباس ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى قال: أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله الله، والله لم يطلع عليه أحد ولقد دفعته إليها في سواد الليل وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت الآية.[1]

والتعبير بقوله ((لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُم)) للإشعار بأن هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا في قبضة المؤمنين وتحت تصرفهم حتي لكأن أيديهم قابضة عليهم.

ومن الأحكام والآداب التي حدثت عن غزوة بدر ما يأتي:

١- أن على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يجعلوا جهادهم خالصاً لوجه الله ومن أجل إعلاء كلمته ونصرة دينه.

٢- أن أخذ الفداء من الأسري لا شيء في ذاته وإنما عاتب الله المؤمنين على أخذه من أسرى بدر، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى بين المؤمنين والمشركين، وكان اذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة في قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم، وأظهر في كسر شوكتهم، وعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين.

قال تعالى:

---

[1] ينظر الزمخشري، الكشاف ج٢ ص٢٣٨ – ينظر ابن كثير – تفسير القرآن الكريم – ج٢ – ص ٣١٠ – وينظر البيضاوي ج١ – ص ٢١٧ – وينظر ابن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير ج٣ – ص ٢٩٠

{وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الأنفال الآية ، ٧١)

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله في سبب نزول هذه الآية عندما استقر الأمر قال بعض الأسرى : يا رسول الله ان عندنا مالاً في مكة، فاسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء، وخشي صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟ فنزل قوله تعالى{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ} والمعنى إن أراد الأسرى خيانتك بالكفر بعد الإسلام فقد خانوا الله من قبل إذ كفروا به قبل أسرهم والمعني أيضاً : إن خانوك أمكنتك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما أمكنتك ببدر. والله عليم بخيانة من خانوها(حكيم) في تدبيره عليهم ومجازاته إياهم.[١]

قال صاحب الكشاف: (وإن يريدوا خيانتك و نكث ما بايعوك عليه من الإسلام ، والردة واستحباب دين آبائهم، فقد خانوا الله من قبل في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة، وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء.[٢]

يقول الامام الرازي: (والله عليم، ببواطنهم وضمائرهم حكيم يجازيهم بأعمالهم)[٣]

وفي الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) فإن خانوك فأنهم خانوا الله الذي خلقهم ورزقهم وتكفل بهم ولم يراعوا هذه النعم من المنعم فقد جحدوا بنعمه قبل أسرك لهم وهذه

---

[١]ابن الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير – ج٣ –ص ٢٩١

[٢]الزمخشري ، الكشاف– ج٢– ص ٢٣٩

[٣]الرازي ، مفاتيح الغيب – ج٧ ص ٤٤٤

خيانة عظيمة فهذا من بديع القرآن لتسلية قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن القرآن انفرد عن كلام العرب بروعة التركيب وخرج بذلك عما يطبقه الناس.

المبحث الرابع

الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن أمر المسلمين بالهجرة والجهاد ونصرة إخوانهم وموالاتهم

أذن الرسول –صلى الله عليه وسلم – لأصحابه بالهجرة إلى يثرب فأخذو يغادرون مكة متسللين منها خفية فرادى وجماعات خشية أن تعلم قريش بأمرهم فتمنعهم من ذلك وقد هاجروا تاركين وراءهم كل ما يملكون من بيوت وأموال وتجارة فراراً بدينهم وعقيدتهم.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالثبات عند الملاقاة في قتال الكفار وفي ذلك منهج نجاح وفلاح.

قال تعالى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (الأنفال الآية ٤٥)

قال القرطبي: ((يا يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة))((أي جماعة فاثبتوا – أمر بالثبات عند قتال الكفار كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقي الأمر والنهي على سواء وهذا دليل على الوقوف للعدو والتجلد له))[1]

وقال صاحب الكشاف ((إذا لقيتم فئة أي إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار واللقاء اسم للقتال غالباً))

وقوله تعالى((وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: أذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد ((أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)) أي تثبت على الحق أينما كان وكيف كان.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم واذكروه بألسنتكم فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان فأمر بالذكر حتي يثبت القلب على اليقين ويثبت اللسان على الذكر ويقول ما قاله أصحاب طالوت ((رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ))(البقرة الآية، ٢٥٠)

الثالث: أذكروا ما عندكم من وعد– الله في ابتياعه أنفسكم[2]

---

[1] القرطبي – الجامع لأحكام القرآن/ ج٨ – ص ٢٦

[2] القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج٨، ص ٢٦

وفسر بعضهم هذا الذكر بالتكبير وبعضهم بالدعاء ورووا أدعية كثيرة في القتال وفي الآية تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر مولاه سبحانه، وذكره جل شأنه في مثل ذلك الموطن من أقوى أدلة محبته جلَّ شأنه[1].

أما ما ورد في الآية من بلاغة النداء في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا) فهي جملة إنشائية طلبية نداء يفيد تنبيه المنادى إلى أمر عظيم يجدر به أن يكون على وعي به وأخذ بما فيه من معاني الهدى، وقد كثر النداء في القرآن الكريم، وهو نداء من خالق إلى مخلوق، وهذا وحده فيه فيض من التكريم، والتنبيه إلى أنهم في علمه قائمون، وفي رحمته غارقون، وتحت قهره نازلون، ومن أقام هذه المعاني في قلبه لا يكاد يغفل عن ذكر ربه تعالى. والسنة البيانية للقرآن الكريم في نداء ((أمة الإجابة))، أنه ينادي عليهم بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا) تذكيرا لهم بالعهد الذي عاهدوا الله عز وجل عليه وهو الإيمان بما أمرهم بالإيمان به.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه إذا ما سمعت الله عز وجل يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعه سمعك فإن من بعده خيراً يأمر به أو شراً ينهي عنه.

وفي اختيار ((يا)) للنداء وهي عند بعض أهل العلم لنداء البعيد للدلالة على أن المنادى فيه شيء من البعد بالمعصية والذنوب عن المنادي جل جلاله.

وجاء تعريف المنادى باسم الموصول دلالة على أنه المعروف بالصلة التي هي الإيمان وكأن هذا الايمان هو أجل ما يعرف به ذلك المنادى فهو شرفه الذي عليه أن يتمسك به،

---

[1] الألوسي – روحالمعاني– ج٧– ص١٠١

وأن يفخر بنعته به وأن يسعي إلى زيادته وتثبيته بالإكثار من الطاعات، والفرار من السيئات.[١]

إن فقه النداء في القرآن الكريم يعنى بتبصر ما يعبر به عن المنادى في سياقه والقصد المنصوب له الكلام، وهذا تراه ظاهر التصريف البليغ المعجز في نداء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) حيناً يناديه: يا أيها النبي، وحيناً يناديه: يا أيها الرسول، ولكل سياقه ومقامه ومقتضاه، ولم يأت ألبته: يا محمد كما جاء في نداء سائر الأنبياء على الرغم أن في اسمه ((محمد)) من الثناء ما فيه، فهو دال على ذاته ونعته أي المبالغ في حمده العظيم خلقه ومنزلته عند ربه عز وجل ، وهذا من عظيم إجلال الله عز وجل عبده ونبيه ورسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم).

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى (لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ) قال صاحب الكشاف (لعلكم تظفرون) بمرادكم من النصرة والمثوبة . وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هماً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره.[٢]

وعلى كل نجد أن بلاغة القرآن الكريم تكمن في كل حرف من حروفه وسياقه و ألفاظه وائتلافها مع المعنى فلفظ ((لقيتم)) الذي جاء بعد أداة الشرط متسق ومؤتلف مع جواب الشرط وهو قوله ((فأثبتوا)) أمر لأن لقاء العدو يحتاج إلى ثبات في الموقف وكذلك الثبات الأكبر هو ثبات القلب وإن أداة ثباته هو ذكر الله عز وجل، لذلك لم يقل إذا لقيتم فئة فقاتلوا لأن القتال دون ثبات وذكر سيؤدي إلى الهزيمة.

---

[١] د. محمد توفيق محمد سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ج٤– ص١

[٢] الزمخشري، الكشاف– ج٢، ص ٢٢٦

وفي الآية نداء إقبال وتشويق وفيه تخصيصهم بالمدح وهو كثير في القرآن لأن الله جمع أوصاف المؤمنين إثر تعداد ما يوجبه وتقتضيه تنشيطاً لهم، وحث على مراعاة ما يعقب من الأمر وهذا مطّرد في القرآن الكريم إذ يأتي النداء بصيغة الإيمان، ثم يعقبه التكليف والأمر المراد وهو قوله تعالى فاثبتوا واذكروا الله كثيراً

قال تعالى{وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال الآية ، ٤٦)

أي وأطيعوا اللهورسوله في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء، ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم، واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها فان الله مع الصابرين بالنصر والعون.

قال الزمخشري: (الريح الدولة وفيه استعارة شبهت القوة أو الدولة في نفوذ أمرها وتفشيه بالريح وصعوبتها ، فقيل هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره.[1] كما لا تخفى الاستعارة في قوله تعالى (فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ) أي تذهب دولتكم وشوكتكم، فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها في تفشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها وجريانها.[2]تتابعت الجمل الإنشائية ففي قوله "أطيعوا " أمر وفي "ولا تنازعوا" نهي وفي "اصبروا" أمر .

وبعد أن بين الله تعالى للمؤمنين عوامل النصر وهي الثبات على أرض المعركة، والإكثار من ذكر الله، وطاعة الله ورسوله والوحدة وعدم التنازع وحثهم على الصبر ختم الآية

---

[1]المصدر السابق نفسه – ج٢، ص ٢٢٦

[2]محمدصافي،اعرابالقرآنوصرفهوبيانهج١٠– ص ٢٣٧

بقوله﴿ إِنَّ اللّـَهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) يقول الإمام الرازي(والمقصود أن كمال أمرالجهاد مبني على الصبر فأمرهم بالصبروبيّن أنه تعالى مع الصابرين)[1]

قال تعالى{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّـَهِ وَاللّـَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } (الأنفال الآية ، ٤٧)

بد أن ذكر المولى جل في علاه عوامل النصر في الآيات السابقة، ذكر هنا بعض عوامل الهزيمة وهي التكبر والرياء والكفر، وورد في سبب نزول هذه الآية، عندما نجت القافلة أرسل أبو سفيان إلى أبي جهل قائلاً له: (إن الله قد نجىَّ عيركم وأموالكم ورجالكم فأرجعوا) فقال أبو جهل (والله لا نرجع حتي نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثا ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر) قال صاحب الكشاف: (فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم له)[2]

أما قوله تعالى (بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّـَهِ وَاللّـَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

فالبطر لغة : المقّوى بنعم الله على معاصيه وهو اعجاب المرء بما فيه من نعمة والاستكبار على الناس، والرئاء هو الخروج من أجل أن يراهم الناس سمعة ورياء، أي بالغ في إراءة الناس عمله محبة أن يروه ليفخر عليهم.

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب ج٧، ص ٤١١

[2] الزمخشري ، الكشاف– ج٢، ص ٢٢٧ وأنظر ابن كثير ج٤ ص ٣٦ والألوسي،روحالمعاني– ج٧– ص١٠٣

وجيء في يصدون بصيغة الفعل المضارع للدلالة على حدوث أوتجدد صدهم الناس عن سبيل الله.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } لتوضح علم الله المطلق واحاطته بكل خفايا الكفار واسناد الإحاطة إلى الله تعالى مجاز عقلي لأن المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلممجاز .علاقته السببية.

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الأنفال الآية ، ٤٨)

ما ورد في سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس (جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان معه رأيته في صورة رجل من بنى مدلج على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وقال للمشركين ((لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم)) فلما اصطف الناس أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبضة من التراب فرمي بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل –عليه السلام– إلى إبليس فولي ابليس هارباً، فقال الحارث بن همام الذي كان يمسك بيده: يا سراقة إلى أين أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: ((إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب)).[1]

والمراد بأعمالهم في هذه الآية الكريمة فيه ثلاثة أقوال:

[1]ينظر القرطبي– الجامع لإحكام القرآن ج٨–ص٢٧–وينظر الزمخشري الكشاف ج٢– ص٢٢٧–٢٢٨– وينظر الالوسي روح المعاني ج٧ ، ص١٠٤–١٠٥ وينظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج٤/ ص٦٤

أحدها الشرك– والثاني مسيرهم إلى بدر – والثالث قتالهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).[1]

وأما قوله تعالى (وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) فليس المراد بالجار هنا جار الدار بل المراد هو من يؤوي غيره ويؤمنه ويلجأ إليه، لأن من عادة العرب خاصة القبائل أو الطوائف القوية منها أن تضمن من يلجأ إليها من أصدقائها وأصحابها وتؤمنهم وتدافع عنهم بكل ما أوتيت من قوة...

وفي قوله تعالى (فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ) استعارة تمثيلية أي رجع القهقرى فإن النكوص كان عند التلاقي لا عند الترائي، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبه بطلان كيده بعد تزيينه بمن رجع القهقري مما يخافه كأنه قيل لما تلاقتا بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم.[2]

وقوله تعالى ((عقبيه – مثنى عقب وهو مؤخرة القدم ومنه حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((ويل للأعقاب من النار)). وذكر العقبين لتفظيع التقهقر، لأن عقب القدم أخس القوائم لملاقاة الغبار والأوساخ، والنكوص لا يكون إلا على العقبين لأنه الرجوع إلى الوراء.

والمقصود بالرؤيا في قوله تعالى (إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ) رؤية بصرية للملائكة وهي تنزل من السماء.

وقوله سبحانه وتعالى (وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) يحتمل أن يكون من كلام اللعين ابليس عليه لعنة الله، أو أن يكون مستأنفاً من جهته سبحانه وتعالى، وأدعى بعضهم أن الأول هو

---

[1] ابنالجوزي، زادالمسير فيعلمالتفسيرج٣ ص ٢٧٨

[2] الألوسي ، روح المعاني– ج٧– ص١٠٤

الظاهر، إذ على احتمال كونه مستأنفاً يكون تقريراً لمعذرته ولا يقتضيه المقام، فيكون فضله من الكلام وتعقب بأنه بيان لسبب خوفه حيث إنه يعلم ذلك.[1]

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال الآية ، ٤٩)

والمقصود بالمنافقين هنا هو كل من يظهر الاسلام ويبطن الكفر، والنفاق ظهر في المدينة ولم يظهر في مكة، لأن النفاق لا يظهر إلا حال قوة المسلمين.

والقائلون لهذا القول هم بعض المنافقين الذين كانوا في المدينة، أو المسلمون الجدد الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم، وقيل هم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها.

وأما قوله تعالى (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقال (غرّ هؤلاء دينهم).

الثاني: أنهم المشركون لما رأوا قلة المسلمين قالوا (غرّ هؤلاء دينهم).

الثالث:- أنهم قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي (صلى الله عليه وسلم) والإشارة بقوله (هؤلاء) إلى المسلمين، وإنما قالوا هذا لأنهم رأوا قلة المسلمين، فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم.[2]

قوله تعالى (غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ) الدين هو الإسلام واسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر فاطلاق الغرور هنا مجاز واسناده إلى الدين حقيقة عقلية.

---

[1] المصدر السابق، ج٧- ص ١٠٥

[2] ابن الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير ج٣- ص ٢٧٩

ثم ختمت الآية بقوله تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) يقول الإمام الرازي: ((أي ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على احسان الله، فإن الله حافظه وناصره، لأنه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه والرحمة والثواب إلى أوليائه)).[1]

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(الأنفال الآية ، ٧٢)

تحدد هذه الآية طبيعة العلاقات في المجتمع المسلم على أنها لا تقوم على أساس أرض أو جنس أو لغة، وإنما على أساس العقيدة، لذلك قسم الله المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:-

فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبين أنهم حرموا الولاية حتي يهاجروا في سبيل الله.[2]

وقيل ترتيب هذه المتعاطفات في الآية على حسب الموضوع والأهمية فان الأول الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد بالمال لنحو التأهب للحرب ثم الجهاد بالنفس (وَالَّذِينَ آوَوا

---

[1] الامام الرازي ، مفاتيح الغيب- ج٧ -ص ٤١٥

[2] الصابوني ، صفوة التفاسير ج١- ص٥١٦

وَنَصَرُوا)هم الأنصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وآثروهم على أنفسهم ونصروهم على أعدائهم.[1]

والخلاصة : كان المؤمنون زمن النبوة ثلاثة أصناف:

١- المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم لنصرة دين الله وإقامة دينه وبذلوا لذلك أموالهم وأنفسهم.

٢- الأنصار: أهل المدينة الذين استقبلوا اخوانهم في منازلهم وآووهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم كل اثنين أخوان يرث أحدهما الآخر، حتي نسخ الله تعالى ذلك بآية المواريث.

٣- الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا بواديهم فهؤلاء لا نصيب لهم من المغانم أو الخمس إلا إن حضروا القتال. [2]

والمراد بالنصر في قوله تعالى (وَالَّذِينَ آَوَوا وَنَصَرُوا) النصر الحاصل قبل الجهاد وهو نصر النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين بأنهم يحمونهم بما يحمون به أهلهم، ولذلك غلب على الأوس والخزرج وصف الأنصار.

واسم الإشارة في قوله تعالى (أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) لإفادة الاهتمام بتميزهم للإخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم وقوله تعالى(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ

---

[1] الالوسي- روح المعاني- ج١، ص ١٤١

[2] ينظر: مأمون حموش- التفسير المأمون- ج٣ – ص ٤١٥

مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَيْءٍ) والفاء في قوله تعالى (وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ) ظرفية مجازية تؤول إلى معنى التعليل أي طلبوا أن تنصروهم لأجل الدين.

وقوله تعالى (فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) من صيغ الوجوب أي فواجب عليكم نصرهم وقدم الخبز ((فعليكم)) للاهتمام به.

والاستثناء في قوله تعالى (النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) استثناء من متعلق بالنصر وهو المنصور عليهم ووجه ذلك أن الميثاق يقتضي عدم قتالهم إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين. وفي هذا التحذير تنويه بشأن الوفاء بالعهد وأنه لا ينقضه إلا أمر صريح في مخالفته. [1]

وقال تعالى{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال الآية ، ٧٤)

كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار بأنهم الفائزون بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم بقوله سبحانه (لَهُم مَّغْفِرَةٌ) لا يقدر قدرها (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي لا تبعة له ولا منة فيه، وقيل هو الذي لا يستحيل نجواً في الأجواف وهو رزق الجنة.[2]

ولا تكرار بين هذه الآية والآية التي قبلها لأن الأولى بيان لإيجاب التواصل بينهم، والثانية بيان لرفيع درجاتهم وعظيم شرفهم وقوله تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) هذه الصيغة صيغة قصر أي قصر الإيمان عليهم دون غيرهم ممن لم يهاجروا والقصد هنا مقيد

---

[1] المرجع السابق ج٣ /ص ٤١٦

[2] الالوسي- روح المعاني- ج١، ص ١٤٣

بالحال في قوله (حَقًّا).المفردات مكررة ، والتكرار مبغوض مكروه ،ولكنه جاء هنا لأغراض بلاغية أي لاختلاف المقام والغرض.

وأما قوله تعالى (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي ثواب عظيم في الجنة، ونعيم مقيم لا تنغيص فيه ولا انقطاع. ويدخل في عموم هذه الآية كل من جاء بعدهم من المؤمنين على مدار القرون المتتابعة وسلك مناهجهم في الإيمان والعمل الصالح، فهو معهم يوم القيامة في الأجر والمنزلة والشرف بإذن الله تعالى.[1]

وقد حفلت السنة الشريفة بكنوز من الخير في آفاق هذا المعنى في أحاديث منها- ما أخرجه ابن ماجه بسند صحيح عن البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (من أحب الانصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله).[2]

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله).[3]

وتوجد في لفظ (وهاجروا) كناية عن صفة الترك للشهوات من المال والبنين والنساء وزخرف الحياة الدنيا وإقبالهم على الجهاد في سبيل الله ولا يكون هذا إلا لمن أحب الله ورسوله وصحابته والتابعين واقتدى بهم.

قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(الأنفال الآية، ٧٥)

---

[1] مأمون حموش- التفسير المأمون- ج٣ -ص ٤١٩

[2] - أخرجه بن ماجه في السنن ج١ ص٧٠ - وأخرجه أحمد في المسند ج٢- ص٥٠١

[3] أخرجه البخاري ج٤، ص٢٢٣ وأخرجه مسلم ج١، ص٦٠ وأحمد في مسنده ج٤، ٢٩٢

قيل المراد بهم في هذه الآية المؤمنون المهاجرون من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية، وقيل من بعد نزول الآية، وقيل من بعد غزوة بدر، والأصح المراد بهم الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى (فَأُولَئِكَ مِنْكُم) أي من حملتكم أيها المهاجرون والأنصار، وفيه إشارة إلى السابقين هم السابقون في الشرف وأن هؤلاء دونهم فيه، ويؤيد أمر شرفهم توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات.[1]

وأما قوله تعالى (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أي في المواريث بالهجرة قال ابن عباس آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية فتوارثوا بالنسب.

وأما قوله تعالى (في كتاب الله) ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ.

الثاني: أنه القرآن وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة النساء.

الثالث: أنه حكم الله[2]

ثم ختمت الآية بقوله (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، أي أحاط بكل شيء علماً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم السورة في غاية البراعة. [3]

ومن الواضح أن التناسب في نهاية الآية هو من بلاغة القرآن الكريم فجاء لفظ عليم بصيغة فعيل التي بمعنى فاعل أي عالم ولكن لفظ عليم أرق وألطف وأنسب لأنه عليم

---

[1] الالوسي ، روح المعاني– ج٧ ص ١٤٤

[2] ابن الجوزي ، زار المعاد – ج٣ ، ٢٩٣

[3] الصابوني ، صفوة التفاسير ج١، ص ٥١٧

بالإيمان الذي محله القلب ، وعليم بمن هاجر، وعليم بمن جاهد ابتغاء وجه الله والعلم بهذه الأشياء لا يعلمه ولا يطلع عليه أحد من الخلق سوى الله سبحانه وتعالى العليم.

الخاتمة

تتناول هذه الدراسة جماليات التعبير القرآني في سورة الأنفال وتأمل تراكيبه وأساليبه وتدبر معانيه والكشف عن دلالة تلك الجماليات وأسرارها البلاغية ولطائفها البيانية . وقد اشتملت الدراسة على ثلاثة فصول ، كل فصل احتوى على ثلاثة مباحث . وبعد البحث والاستقصاء توصل البحث إلى النتائج التالية :

– نجد في النصوص القرآنية التي تدعو إلى طاعة الله ورسوله من سورة الأنفال أعلى درجات البلاغة والفصاحة ولذلك تحققت فيها كل مقومات الإعجاز البياني.

– للنص القرآني تأثيره العجيب على القلوب بما لا يتوافر لنص آخر .

– ارتباط طاعة الله ورسوله بصفات التقوى والإيمان والإخلاص لله والصبر والتوكل على الله والجهاد في سبيله .

– كشفت الآيات الكريمة عن أهمية طاعة الله ورسوله في حياة المؤمنين وتحقيق العزّة والمنعة والنّصر على أعدائهم .

– تلتقي الآيات الكريمة في سورة الأنفال في غاياتها ومقاصدها وإعجازها .

– تضافرت الأساليب والفنون البلاغية في الآيات القرآنية محققة للتعبير القرآني أسمى ما يصل إليه من تأثير ووفاء بالمعنى والإمتاع بالجمال .

– برز في الآيات الكريمة الإحكام الدقيق في بنيتها مما يؤكد التناسق الفّني بين ألفاظها وعباراتها .

– وضوح التناسب بين آيات طاعة الله ورسوله مع الآيات الأخرى في السورة ، فوجه الصلة والترابط والتلاحم بين تلك الآيات واضح جلي في المعاني والتراكيب والمقاصد على السواء .

– إن دراسة الأسلوب القرآني وجماليته تقع في القمة من حيثُ الأهمية في الدراسات البلاغية ، فهي تكشف عن بعض دلائل إعجازه البلاغي .

– إن الأسلوب القرآني أجلُّ من أن يحكم بقاعدة ُمطردة ، فقد رأينا ما للسياق من تحديد لدلالة الإختصاص أو عدمه ، فالتركيب بذاته يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن

– تعد الظواهر الأسلوبية في القرآن الكريم من الظواهر التّي اكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها والحق أن الوعي بعبقريته العربية وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال رؤية شاملة .

– تتسم سورة (الأنفال)بما اتَسم به كتاب الله الخالد من بلاغة حار فيها فصحاء العرب فسلموا به.

– إن ما تضمنته سورة (الأنفال) من فنون بلاغية كشف عن الدقة البالغة في تركيب النص القرآني وانسجام ألفاظه ، وتأليف عباراته ، وتناسب آياته المنسقة في جُملِ ها ، القارة في أماكنها ، فهذا النص النموذج الأعلى في قوّة السبك والإحكام في النسج وحسن الإيقاع.

التوصيات :

١- توجيه الطلاب إلى البحث في بلاغة القرآن الكريم .

٢- توجيه الطلاب إلى البحث في بلاغة الحديث النبوي الشريف .

٣- أن تدرس أسرار التعبير القرآني في سور القرآن الأخرى .

فهرس الآيات

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١	لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ	يس	٧٠	١
٢	{۞ أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ	الانفال	٧٠	١
٣	وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين	الانبياء	١٠٧	١
٤	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾	الفرقان	٢٠	٢
٥	﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ﴾	الفرقان	٣٢	٢
٦	وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً	الفرقان	٣٢	٢
٧	كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ﴾ (ا ، الآية : ٣٢	لفرقان	٣٢	٢
٨	(☎قَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)	الزخرف	٣٠	٢
٩	أهم يقسمون رحمة ربك "	الزخرف	٣١	٢
١٠	(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَّسُولا...)	الإسراء	٩٠	٣
١١	﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.	الجن	١	٤

١٢	انا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُون	الحجر	٩	٤
١٣	(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) .	محمد	٢٤	٥
١٤	" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً "	طه	١٠٣	١٧
١٥	وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوح "	الإسراء	٨٥	١٧
١٦	يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ "	البقرة	٢١٩	١٧
١٧	وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيت "	البقرة	١٨٩	١٧
١٨	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم	فصلت	٤٢	١٨
١٩	وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا	النساء	١٢٢	٢٤
٢٠	وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ	الشعراء	٨٢	٢٦
٢١	واذكروه كَما هَداكُم}	البقرة	١٩٨	٣٦
٢٢	وكان حقاً علينا نصر المؤمنين	الروم	٤٧	٤٤
٢٣	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	البقرة	١٨٥	٥٠
٢٤	أفمن حق عليه كلمة العذاب	"الزمر	١٩	٥٠
٢٥	حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ	الزخرف	٢٩	٥٠
٢٦	قد ضلوا وما كانوا مهتدين	الأنعام	١٤٠	٥١
٢٧	وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَة "	الأنبياء	٣٥	٥٣

٢٨	ذقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ	الدخان	٤٩	٥٥
٢٩	إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا	النساء	٧٦	٥٦
٣٠	إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ	يوسف	٢٨	٥٧
٣١	مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا	النساء	١٤٧	٥٩
٣٢	إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ	آل عمران	٦٢	٦٣
٣٣	ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"	البقرة	١٤٥	٨٤
٣٤	بما أنزل إليك	البقرة	٤	٨٤
٣٥	في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون	البقرة	٢٧	٨٦
٣٦	يا يحيى خذ الكتاب بقوة"	مريم	١٢	٨٧
٣٧	وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ	الأحزاب	٣٦	٩٤
٣٨	بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ	الرعد	٢٨	٩٧
٣٩	أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ	الأعراف	١٧٩	١٠٧
٣٩	وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ	البقرة	١٧١	١٠٧
٤٠	أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ	الزمر	١٩	١٣٢
٤١	وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً	الأنبياء	٣٥	١٤٨
٤٢	وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ	آل عمران	١٢٦	١٤٩

٤٣	ر بَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ	البقرة	٢٥٠	١٦٨

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحه
ورد في صحيح مسلم عن سعد ابن أبي وقاص –رضي الله عنه– قال : لما كان يوم بدر أصبت سيفا لسعيد بن العاص فأتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت : نفلنيه . فقال " ضعه " ، ثم قام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " ضعه من حيث أخذته.....	١٥
أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن معاذ ، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا	٦٤
وفي سنن أبي داوود (بسند صحيح عن أبي أمامة عن الرسول الله صلى عليه وسلم قال "إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام "	٦٤
ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (قال رجل يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟....."	٧٠
ما أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات من حديث عمرو بن العاص (إن الإسلام يجب ما كان قبله وان الهجرة تجب ما كان قبلها)	٧٠
أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو على المنبر يقول : واعدوا لهم....."	٨٥
ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً (الخيل معقود في نواصيها الخير	٨٥
ما أخرجه ابن ماجة، في سننه بسند صحيح عن عروة البارقي (الإبل عز لأهلها ،	٨٥

والغنم بركة والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة)	
ما أخرجه البخاري ومسلم عن أسامه بن زيد رضي الله عنهما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (لا يرث المسلم الكافر ،ولا الكافر المسلم)	٨٨
ما أخرجه الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)قال: ((لايتوارث أهل ملتين شتى....."	٨٩
ما أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح عن على رضي الله عنه- يصف كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر- فقال: (لقد رأيتنا يوم بدر.....)	١٣٧
ما أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث عمر قال: (فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبابكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم....."	١٥٨
ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث علي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لعل الله أطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.."	١٦٢
ما أخرجه ابن ماجه بسند صحيح عن البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (من أحب الانصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله)	١٧٨
ما أخرجه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله)	١٧٨

المصادر والمراجع

–القرآن الكريم

–ابن الأثير :المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية – بيروت ، لبنان ١٩٩٥.

– ابن الجوزي– زاد المسير في علم التفسير –المكتب الإسلامي، دمشق ط ٣، ١٤٠٤.

– ابن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب.

–ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، تحقيق مصطفي السيد محمد وآخرين، مؤسسة قرطبة، بيروت لبنان ط١ ،٢٠٠٠ف.

–أبو السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم– دار إحياء التراث العربي .بيروت ،د/ت.

–أبو جعفر محمد جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاكر ، مكتبة ابن تميمة.د/ت.

–أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب 2/407 ، تحقيق عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٩٩٨ف.

–أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ،دار الكتب العلمية ط–١–١٩٩٣ف.

–أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن. تقديم هاني الحاج ، حققه وخرج أحاديثه : عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية – القاهرة ، مصر د . ت ..

-ابن منظور- لسان العرب.

-الامام عبد القاهر الجرجاني ، كتاب دلائل الإعجاز- تحقيق / محمود أحمد شاكر : مطبعة الم الإمام الجليل العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود الّنسفي ،تفسير النسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ،١٩٨٢ف.دني - ط ثالثة 1413هـ - ١٩٩٢ م.

-الإمام الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء بيروت لبنان. ١٩٩٢.

-الإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشى ، ينظر البرهان في علوم القرآن تأليف : تحقيق : أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة ، ٢٠٠٦ ،

-الألوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨.

-برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الأيات والسور ، دار الكتب العلمية ، بيروت .د/ت

-جلال الدين السيوطي ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق د. عبد الله التركي ، مركز هجر للبحوث الدراسات القاهرة ٢٠٠٣م

-الحافظ جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القران تحقيق أحمد بن علي ، دار الحديث القاهرة ٢٠٠٦م

–الخطيب القز ويني ، الإضاح في علوم البلاغة ، دار مكتبة الهلال بيروت ط٢ ، ١٩٩١م

–الرازي مفتاح الغيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ،٢٠٠٢م

–الزركشي ،البرهان في علوم القران

–الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الكاشف

–السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، مصر ط ٢ ، ١٣٦٧هـ.

–شهاب الدين احمد بن محمد المصري – التبيان في تفسير غريب القران –دار الصحابة للتراث – ط الاولي ١٩٩٢ – جـ ١.

–الشنقيطي، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تعليق خالد بن عثمان ، دار ابن الأرقم للنشر والتوزيع، السعودية ، ط١ ، 2003ف.

–الشيخ محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة.د/ت..

–عبد الحقّ القاضي آيات القتال في سورة الأنفال (دراسة وتحليل) مجلّة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ، عدد١٣ ،٢٠٠٦.

–عبد الخالق عبد الدايم القاضي – مجلة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

–عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار المعارف، الجزائر، ٢٠٠٤.

–العجيلي : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، دار الفكر، د/ت.

–العجيلي اللباب في علوم الكتاب ٥٦٣/٩، والفتوحات الآلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفّية ، ، دار الفكر ، بيروت.

–العسكري ، كتاب الصناعتين – تحقيق الأستاذين ،علي محمد البجاوي ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم –٤١٣– ط دار الفكر.د/ ت

–فخر الدين الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق د. نصر الدين أوغلي ، دار صادر ، بيروت ط١

–الفخر الرازي – مفاتيح الغيب – دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط١.٢٠٠٠.

–القاضي البيضاوي، حاشية شيخ زادة على تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، مكتبة الحقيقة، اسطنبول، تركيا ١٩٩٨.

–القاضي أبي محمد عبد الحق الأندلسي /المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق .عبد السلام الشافعي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ط ١ ، ٢٠٠١..

–الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في مصيدة التأويل ، رتبه وصححه ، مصطفى حسن أحمد دار الكتاب العربي

–محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مطبعةالسعادة ١٣٩٩ هـ.

–مأمون حموش – التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون ط١ ، ٢٠٠٧ دمشق.

–محمد الأمين الأرمي الشافعي .تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن .مراجعة د.هاشم مهدي ط.طوق النجاة ،بيروت لبنان ط١ ، ٢٠٠١ ف.

–محمد الطاهر بن عاشور–تفسير التحرير والتنوير . دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس. ١٩٨٧.

–محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٧

–محمد علي الصابونى ، صفوة التفاسير ، دار القلم العربي ، ط ١٩٩٤.

–محمد علي الصابوني – مختصر تفسير الكثير – دار الجبل بيروت ط الأولى

–محمد متولي الشعراوي ، معجزة القرآن ، دار سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، محمد محمد أبو موسى ، دلالات التراكيب دراسة بلاغية : مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.تونس .د/ت.

–محمود صافي– إعراب القرآن وصرفه وبيانه ج٩.

–مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دارالكتاب العربي ، بيروت – لبنان.

فهرس المحتويات

فهرس الموضوعات	رقم الصفحة
الآيـة	أ
الإهداء	ب
شكر وتقدير	ج
الملخّص باللغة العربية	د
الملخّص باللغة الانجليزية .Abstract	هـ– و
مقدمة	ز– ي
تمهيد	١ – ١٤
الفصل الأول: الأسرار البلاغية في مقام ذكر غزوة بدر وما سبقها ولحقها من أحداث	
المبحث الأول: الأسرار البلاغية في استهلال السورة بسؤال الصحابة عن الأنفال ، وبيان أحكام قسمتها ومصارفها .	١٥ – ٢٩
المبحث الثاني: الأسرار البلاغية في مقام ذكر الخروج إلى غزوة بدر.	٣٠ – ٤٦
المبحث الثالث: الأسرار البلاغية في مقام أحداث الغزوة وبعض تفاصيلها ونصرة الله لرسوله وللمؤمنين في هذه الغزوة.	٤٧ – ٥٥
الفصل الثاني : الأسرار البلاغية في حديث السورة عن المشركين وأحوالهم مع الرسول .	

عليه السلام	
المبحث الأول : الأسرار البلاغية في بيان مكر الكفار برسول الله عليه السلام . في مكة ، وموقفهم من الوحي والرسالة .	٥٦ – ٦٩
المبحث الثاني: الأسرار البلاغيّة في مقام الحديث عن السّلم ومحاولة خداع المشركين لرسول الله ﷺ .	٧٠ – ٧٧
المبحث الثالث: الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن الكفار ونقضهم للعهود ، وعدم توليهم ، وأهمية الإعداد العسكري لهم .	٧١ – ٨٩
الفصل الثالث : الأسرار البلاغية في ذكر أحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة ، ومسائل أخري متفرقة	
المبحث الأول: الأسرار البلاغية في مقام أمر المسلمين بطاعة الله ورسوله والاستجابة لهما.	٩٠ – ١٢٨
المبحث الثاني: الأسرار البلاغية في مقام تحريض المسلمين على القتال ، وإعداد العدة له.	١٢٩ – ١٥٧
المبحث الثالث: الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن الأسرى والأمر بحسن معاملتهم.	١٥٨ – ١٦٦
المبحث الرابع: الأسرار البلاغية في مقام الحديث عن أمر المسلمين بالهجرة والجهاد ونصرة إخوانهم ، وموالاتهم .	١٦٧ – ١٨٠

الخاتمة	١٨١ – ١٨٢
التوصيات	١٨٣
فهرس الآيات	١٨٤ – ١٨٧
فهرس الأحاديث	١٨٨ – ١٨٩
المصادر والمراجع	١٩٠ – ١٩٤
فهرس المحتويات	١٩٥ – ١٩٧